عِبر من قصص الأنبياء

أسامة شحادة

عِبر من قصص الأنبياء

الطبعة الأولى

2019-1441

عمان -الأردن

عِبر من قصص الأنبياء

أسامة شحادة

www.osamashahade.com

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، أما بعد

فما أحوجنا في هذا الزمان ونحن نقاوم وندافع سيل التحديات والفتن والشبهات والشهوات المتلاحقة والمتنوعة أن نستحضر خبرات وتجارب وحكمة أنبياء الله عز وجل، والذين هم خلاصة البشرية وقدوتها العليا الحقيقية ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:٣٣]، والتي قصها الله تعالى علينا في كتابه لهذه الغاية ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [يوسف:١١١].

وستكون رحلتنا مع عبر مختصرة من قصص الأنبياء الذين ذكرهم الله عز وجل في القرآن وهم ٢٤ نبياً، ونبيين ذكروا في السنة النبوية عليهم الصلاة والسلام، بخلاف نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

وقد كان المرجع الأساس لهذه الرسالة كتاب د. صلاح الخالدي «القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث»، فجزاه الله خير الجزاء.

أسامة شحادة
عمان - ٢٤ شعبان ١٤٤٠

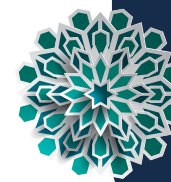

١ آدم عليه الصلاة والسلام

إن قصة آدم، عليه السلام، فيها من العِبر والعِظات الشيء الكثير، خاصة في هذا الزمن الذي راجت فيه شبهات الإلحاد ونفي وجود الله عزوجل وإنكار خلقه للإنسان وكافة المخلوقات، ولعل فرضية التطور الداروينية تعد أبرز أشكال هذه الشبهة، وقصة آدم تبطلها تماماً بكونه عليه الصلاة والسلام قد خُلق خلقاً تاماً مباشراً دون تطور ولا ارتقاء!! وإذا كانت نظرية داروين كلما تطورت العلوم ظهر عوارها وخللها، وتبيّن مناقضتها للواقع والعلم والتاريخ، فضلاً عن أنها تُصادم صريح الوحي الرباني في القرآن الكريم والسنة النبوية، والذي هو المصدر الصحيح للمعرفة عن بداية خلق الإنسان، والذي كلما تطورت العلوم والمعارف العلمية تعرفت على أدلة جديدة تؤكد صدق وصحة خبر الوحي الرباني عن خلق آدم عليه السلام خلقاً تاماً ومباشراً.

ومن عِبر قصة آدم عليه الصلاة والسلام بيان مركزية دور العِلم في حياة المخلوقات بعامة، وحياة الإنسان بخاصة، فلما استفهم الملائكةُ عن غاية خلق الإنسان وأنّه قد يَسفك الدماء ويفسد في الأرض؛ رد الله عز وجل عليهم بقوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٣٠]، برغم ما يقع من الناس من فساد وسفك للدماء إلا أن هناك الكثير من الخير يقع ويحدث، ولعله أضعاف ما يقع من الشر.

ولنا نموذج ومثال في صمود وبطولة وفداء وتكاتف وتعاطف وإيثار وصبر وبذل أهل فلسطين والشام وغيرهم بوجه المحتلين والغزاة، على قلة حيلتهم،

ما نفاخر فيه أمام الملائكة والعالمين، وقد ثبت في السنة أن الملائكة إذا صعدت إلى الله تعالى بأعمال عباده سألهم وهو أعلم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلّون، وتركناهم وهم يصلّون، فكيف ببقية أعمال الخير والبر والطاعة؟

ولما عجزت الملائكةُ عن معرفة أسماء المخلوقات، وعرفها آدم عليه الصلاة والسلام بما علّمه ربه وتبين فضله على الملائكة، أمرها الله عز وجل بالسجود له، وفي ذلك بيان لفضل العلم وكيف أنه ميّزه على الملائكة.

ومن هنا فإن سبيل رقي جنس الإنسان هو العلم بالدين والعلم بالأشياء والدنيا، ومَن جمع بين العلْمين كان في القمة والرفعة كما تحقق ذلك للحضارة الإسلامية قروناً طويلة، ومن قبل كان لسليمان عليه السلام ﴿مُلْكًا لاَّ يَنبَغِى لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِى﴾ [ص:٥٣]، وفي عصرنا الحاضر من كان أكثر علماً بالدنيا كان في رفعة مادية ولو كان منحطاً في أخلاقه ومحطماً في روحه. ومِن أخطاء الحركات الإسلامية اليوم وروادها الزهد بالعلم بنوعيه:

- العلم الشرعي، فتراهم يخالفون الدين والشريعة وهم يرفعون راية تحكيم الشريعة!

- وتراهم معرِضين عن ضبط الحركة والسعي بالعلم والمعرفة السليمة بسنن الله في الكون فتكون الثمرة نكبات ومطبّات وكوارث ﴿كَالَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾ [النحل:٩٢].

ومن فوائد وعِبر قصة آدم عليه الصلاة والسلام كشف منهج الأعداء في إضلال الناس وصرفهم عن طاعة الله عز وجل، اعتمادا على التظاهر بتقوى الله وطاعته ويتجلى ذلك في أن قبول آدم وزوجه حواء الأكل من الشجرة المحرمة لم يحدث إلا بعد أن قام إبليس اللعين بخدعته الشيطانية وهي

﴿وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين﴾[الأعراف:٢١]، فلقد سبق لإبليس أن وسوس لآدم وزوجه لكنهما بقيا غير مصدقين له حتى أقسم لهما بالله عز وجل، وحلف لهما به تبارك وتعالى، ولم يظن آدم وحواء أنه يمكن أن يقسم أحد ويحلف بالله كاذباً! وكانت النتيجة أن طُرد الجميع من الجنة لعصيان أمر الله جل وعلا.

ولا يزال هذا المنهج "الإبليسي" في الحلف كذباً بالله عز وجل هو منهج شياطين الإنس والجن، فكم رأينا من أعداء الإسلام -ظاهراً وباطناً- يحلفون الأيمان المغلظة على خدمة الإسلام ونصرة المسلمين وإذا هم ألد الأعداء وأشد المجرمين، وقد أخبرنا القرآن الكريم عن توظيف المنافقين قديماً للحلف واليمين لخداع المؤمنين فقال تعالى عنهم: ﴿ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين﴾ [المائدة: ٥٣]، وقال عنهم أيضاً: ﴿ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يَفرقون﴾ [التوبة: ٥٦].

أما اليوم، فلعل النموذج الأبرز في توظيف الحلف واليمين في خداع المؤمنين والغدر بهم يأتي من الشيعة والخوارج الذين أقسموا للبسطاء أنهم سيدافعون عن المستضعفين وينصرونهم في وجه الشيطان الأكبر والعملاء والخونة والمرتدين، فإذا الميلشيات الشيعية والداعشية هم من يقوم بالمجازر والوحشية والإبادة الجماعية بأبشع الصور والأشكال ضد المسلمين المستضعفين، وأرض الشام والعراق وما سال عليها من أنهار الدماء شاهدة على إجرام الشيعة والخوارج واتّباعهم لمنهج إبليس! وهذا المنهج الإبليسي في التظاهر بالتدين وتقوى الله عز وجل هو المعتمد اليوم في حرب الإسلام من الشرق والغرب، فلما رأوا انتشار التدين والالتزام

بين المسلمين كان خيارهم تصدير عملاء بزي علماء، ومحاربة التدين الصحيح بمحاصرة منابره الإعلامية، والتضييق على دعاته المخلصين وفتح الباب واسعاً للمهرجين والأفاكين من قليلي الدين والعلم ليتصدروا المنابر والفضائيات والمؤتمرات والصحف.

فخرجت علينا فتاوى إبليسية تحلّ الخمر والزنا والكفر والربا وكل المنكرات والفواحش وتقسم أنها حلال زلال، وأن تحريم هذه المنكرات كان مؤقتاً حتى ترشد البشرية! أو لأن العلم البشري لم يكن يستطيع التعامل مع الأضرار الجانبية لها! أو غيرها من التأويلات الباطلة والتبريرات السمجة، كما فعل شيخهم مع أبينا آدم عليه الصلاة والسلام من قبل.

إن حسد وحقد الشيطان على أبينا آدم هو ما دفعه ليخدعه بالحلف بالله عز وجل ليعصي الله سبحانه وتعالى! حتى نجح في ذلك وطرد أبانا من الجنة! فهل نعتبر من ذلك، ونحذر من اتباع شياطين الجن والإنس اليوم الذين يحلفون لنا بالله ويتظاهرون بتقوى الله ليحرفونا عن صراط الله عز وجل البيّن الواضح في القرآن والسنة وفهم سلف الأمة ويسلكوا بنا طريق الشهوات والمعاصي والكفر والإلحاد؟

٢ نوح عليه الصلاة والسلام

من أهم العبر في قصة نوح عليه السلام، الأب الثاني للبشرية، التأكيد على أن الدين هو الأساس في حياة البشر، وأن الإسلام هو الأصل والفطرة للبشرية، وأن الشرك والكفر هو الشاذ والطارئ على فطرة وتاريخ البشرية، وهذا من معاني قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين:٤-٥]، أي أن جنس الإنسان خلقه ربه مفطوراً على الإيمان بالله عز وجل والتوحيد له بالطاعة والعبادة، لكنه إذا اتّبع الشيطان الرجيم انحطّ إلى أسفل سافلين، ومن صور هذا «السفول» اليوم ما نراه من مجاهرة رئيس وزراء لوكسمبورغ بشذوذه علناً وتقديم (شريكه) باعتباره زوجته في اللقاءات الرسمية! وقيام بعض الكنائس بعقد زواج للشواذ، بل قام بعض الكهنة الشواذ بالزواج من بعضهم بمباركة الكنيسة!

وقصة نوح عليه السلام تكشف بوضوح عن مركزية الدعوة للتوحيد في رسالة الأنبياء ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف:٥٩]، ولليوم لا تزال قضية توحيد الله عز وجل بالخلق والطاعة والأسماء والصفات الحسنى هي لبّ الصراع بين المؤمنين وغير المؤمنين، ففي هذه المرحلة من عمر البشرية هناك دفع لتمدد ظاهرة الإلحاد وإنكار وجود الله عز وجل، وهناك دعم سخي لعودة الشرك والخرافة لمجتمعات المسلمين عبر دعم التصوف المنحرف، وغضّ الطرف عن الغلو والطائفية الشيعية وتبني

كل الفرق الضالة والبدعية كالقاديانية/ الأحمدية والأحباش والقرآنيين والدعاة المزيفين كميزو وعدنان إبراهيم وعلي الكيالي وغيرهم، ويساعد على كل ذلك كثرة الجهل بالإيمان بالله عز وجل وعقيدة التوحيد بين كثير من شباب المسلمين نتيجة (تطوير) مناهج التعليم، حيث كلما زاد (التطوير) ازداد -غالباً- تفريغ المناهج المدرسية والجامعية من أصول وركائز الإيمان، سواء في تقليل نصاب مادة التربية الإسلامية أو العبث بالمضمون وملئه بما (يؤسلم) المبادئ العلمانية! والنسق نفسه يتم بتقليص مساحة الإعلام الديني وتطويع دور المسجد وخطبة الجمعة ليخدم أجندة العلمنة بشكل مباشر أو غير مباشر.

فالدعوة لتوحيد الله عز وجل هي دعوة نوح عليه السلام وكل الأنبياء عبر العصور ولكافة البشر ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيب﴾ [الشورى:١٣]، وطالما لم تركز الحركة الإسلامية على الدعوة لتوحيد الله عز وجل في عملها فإنها ستدخل التيه، والدعوة لتوحيد الله عز وجل يجب أن يكون بعلم واستقامة على طريق النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ﴿فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَواْ﴾ [البقرة:١٣٧] وإلا وقعنا في البدع والمنكرات، والدعوة إلى توحيد الله عز وجل لا تنحصر في جانب دون جانب ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة:٢٠٨]، وبذلك نستقيم على منهج الأنبياء.

تميزت سيرة نبي الله نوح عليه السلام، بكونها تجربة دعوية طويلة ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا﴾[العنكبوت:١٤]، قضاها عليه السلام بدعوةِ قومه بكل طريقة ووسيلة ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي

لَيْـلاً وَنَهَـارًا﴾ فَلَـمْ يَزِدْهُـمْ دُعَاءِـى إِلاَّ فِـرَارًا﴾ وَإِنِّي كُلَّمَـا دَعَوْتُهُـمْ لِتَغْفِـرَ لَهُـمْ جَعَلُـوا أَصَابِعَهُـمْ فِي آذَانِهِـمْ وَاسْتَغْشَـوْا ثِيَابَهُـمْ وَأَصَرُّوا وَاسْـتَكْبَرُوا اسْـتِكْبَارًا﴾ ثُـمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُـمْ جِهَـارًا﴾ ثُـمَّ إِنِّي أَعْلَنـتُ لَهُـمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُـمْ إِسْرَارًا﴾ [نـوح:٥-٩].

وفي هـذه المرحلة الدقيقـة مـن حيـاة أمـة الإسـلام كم نحتـاج إلى تفعيـل عبـادة الدعـوة إلى عبـادة الله عـز وجـل وهدايـة النـاس لرحمـة الله عـز وجـل والسـعادة في ظـل شريعـة الرحمـن والخـروج مـن ظلمـات الجاهليـة المعـاصرة وقيـود الحداثـة العلمانيـة.

وفي ظـل محـاصرة المنـابر الدعويـة الإعلاميـة، والعبـث بمنـاهج التعليـم، ومحـاصرة دور المسـاجد والمحاضـن التربويـة فـإن واجـب الدعـوة الفرديـة للأهـل والأصدقـاء والزمـلاء وعـبر الوسـائل الحديثـة يتعاظـم ويتضاعـف، وهـذا أصـلٌ مـن أعظـم الأبـواب الموصلـة لرضـا الله عـز وجـل ونعيمـه ﴿وَمَـنْ أَحْسَـنُ قَـوْلاً مِّمَّـن دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ [فصلـت:٣٣].

فلنحـرص جميعـاً عـلى تعاهـد أسرنا الضيقـة والواسـعة ودائـرة الزمـلاء والأصدقـاء بالرسـائل والمقاطـع الدعويـة والعلميـة المناسـبة لأعمـارهم وأحوالهـم واسـتغلال مـواسم الخـير والطاعـات بتذكـيرهم بهـا وحثّهـم عـلى اسـتثمارها وتبصـيرهم بخطـر المعـاصي والمنكـرات بعامـة، والتركـيز عـلى تفصيـل مـا يشـيع بينهـم وحولهـم منهـا، وليكـن نـوح عليـه السـلام أسـوة لنـا بطـول النفـس والصـبر عـلى دعوتهـم وتنويـع الأسـاليب والأدوات في دعوتهـم، حتى نحصّـن أمتنـا ومجتمعنـا مـن طوفـان الشهـوات والشـبهات الزاحفـة.

ومن عِبر قصة نوح عليه السلام أن تشكيكات المنكرين والجاحدين لأنوار النبوة والوحي اليوم هي هي منذ ذلك الزمن القديم! فقد رفض زعماء وكفار قومه رسالته ونبوّته لأنه بشر مثلهم! ﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود:٢٧] ولليوم، فإن في الملاحدة والكفار المنكرين لنبوّة محمد عليه الصلاة والسلام من يبررون كفرهم بأن محمداً صلى الله عليه وسلم بشر مثلنا، فلِم نطيعه ونصدقه؟! وبعضهم من دعاة العقلنة والفهلوة يبرر كفره وإلحاده بالزعم بأن الملتزمين والمتديّنين هم من السذّج والبُلْه! والطعن في بشرية الأنبياء مناقض للعقلانية الحقة، فهل سنرفض كل ما جاء به البشر من العلوم والمعارف لأنهم بشر؟ أليس هذا هدماً للحضارات والمدنية التي عرفتها البشرية في مسيرتها؟ فكون الأنبياء بشرٌ ليس فيه مطعن عند العقلاء.

والسبب في تشابه تبريرات الكفار لكفرهم -عبر التاريخ- أن معلمهم واحد، وهو إبليس وأعوانه ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ:٢٠].

فعلى أهل الإيمان التنبه إلى فساد تشكيكات الكفار تجاه الإيمان بالله عز وجل ورسله وأنبيائه، وأنها افتراءات فاشلة ومتكررة عبر التاريخ، وهي مِن وحي الشيطان مهما زخرفوها بالعبارات العصرية والمصطلحات البراقة.

٣ هود عليه الصلاة السلام

أُرسل هود، عليه السلام، ليدعو قومه - أهل عاد - إلى عبادة الله عز وجل وطاعته كنهج الأنبياء من قبله، آدم ونوح وبقية الأنبياء من بعده ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:٦٥]، وكانت عاد قد ظهرت بعد قوم نوح ﴿وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ [الأعراف:٦٩].

وقد تميز قوم عاد بقوّتهم المادية الضخمة ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلاَدِ﴾ [الفجر:٧-٨] ولكن هذه القوة المادية دعتهم للطغيان والظلم بدلاً من الاستقامة وإقامة العدل ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:٥١] ودعتهم للإسراف والترف والعبث ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء:١٢٨-١٣٠].

كما دعتهم هذه القوة المادية الضخمة للتمادي في الباطل، فجمعوا معها أيضاً تكذيب نبيهم هود، عليه السلام، وردّ دعوته لهم لتوحيد الله عز وجل ﴿قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [الأعراف:٧٠].

وسنّة الله عز وجل في التاريخ أن الكفر والمعصية نتيجتهما الخسران والذل، وأن الإيمان والطاعة ثمرتهما النصر والعزة في الدنيا والآخرة، ولذلك خاطب

هودٌ عليه السلام قومه بقوله: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِين﴾ [هود:٢٥]، لكنهم استكبروا فسلب الله قوتهم، ودمّرهم.

فالالتزام بتوحيد الله عز وجل وطاعته هو سبيل الفلاح والقوة والنصر، وفي واقعنا اليوم فإن ما تتعرض له الحركات والمجتمعات والدول المسلمة من مصائب وكوارث، من أهم أسباب وقوعها تقصيرها في تحقيق توحيد الله عز وجل بمداهنة باطل المشركين والمبتدعة كالشيعة وغلاة الصوفية وغلاة العلمانية والقوى الدولية تحت شعارات التدرج والتعايش، وقبول الآخر والانفتاح والاجتهاد ومراعاة المقاصد!

وهذه الأوصاف وهذه العنجهية وهذا السلوك المتكبر هي ما نعيشه اليوم في ظل طغيان الفكر المادي، فهذه السياسات الأمريكية بزعامة ترامب تنشر الخراب والحروب في كل مكان، وهذه روسيا بزعامة بوتين تقتل الأبرياء في سوريا والشيشان وغيرها بأبشع الصور والأشكال، وكذلك فعل حلفاؤه الصرب في البوسنة والهرسك قبل سنوات غير بعيدة، ولعل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِين﴾[الشعراء:١٣٠] هو أفضل وصف لجرائمهم.

ولكن الله عز وجل قصم جبروت قوم عاد وأذلّ قوتهم من خلال المطر والريح! والتي كانوا يظنون أنها ستكون ذات منفعة لهم ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَـذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيم﴾ [الأحقاف:٢٤]، ولعل هذا ما سيكون حال الطغيان المعاصر، فها هي الأمراض الجنسية تفتك بهم وهم يظنون أنهم ملكوا المتعة والسرور، وهذه الأزمات الاقتصادية تلاحقهم وهم يظنون أنهم بالربا يستغنون، وتتزايد بينهم حالات الانتحار والإدمان والتفكك الأسري وهم

يظنون أنهم في الفردية والحرية ينعمون، وفي فلسطين المحتلة ها هي القنبلة الديمغرافية تكاد تفتك بهم بازدياد عدد الفلسطينيين بينما هم يحتفلون بإعلان يهودية الدولة ونقل سفارة أمريكا للقدس، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾ [المدثر:٣١].

يَعتبر بعض الباحثين في التاريخ قومَ عاد أصل الحضارات القديمة، وذلك بسبب قوتهم المادية التي أثبتها القرآن الكريم، ولِما في الحضارات القديمة من تشابه برغم تباعد مناطقهم، مما يشير لأصل واحدٍ انبثقوا منه، ولكون قوم عاد هم خلفاء قوم نوح عليه السلام.

ويبدو أن قوم عاد كانوا -أيضاً- مصدراً لتأصيل الكفر وتبريراته وشبهاته في العالم والحضارات اللاحقة -ولليوم-، فحين جاءهم هود عليه السلام بدعوة التوحيد ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلاَ تَتَّقُونَ﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء:١٢٤-١٢٦]، كان موقفهم الرفض والعناد واتهامه بالكذب والسفاهة والجنون ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف:٦٦]، و ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾[الأحقاف:٢٢]، ﴿إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ [هود:٥٤].

ولا يزال الكفار والملحدون منذ زمن قوم عاد ولليوم يتهمون الأنبياء والعلماء والمصلحين بالكذب والسفاهة والجنون، فلما كذبت قريش نبينا محمدًا -عليه الصلاة والسلام- قال الله تعالى عن موقفهم الباطل: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات:٥٢-٥٣].

وفي هذه المرحلة من تاريخ المسلمين تكاثرت (تغريدات) و(بوستات) فضلاً عن المقالات والكتب والروايات وغيرها من المجرمين والحاقدين على الدين والإسلام والنبي صلى الله عليه وسلم من كثير من الدول المسلمة والتي تطعن في الإسلام والقرآن الكريم والنبي صلى الله عليه وسلم باتهامه بالخداع والكذب والجهل، وليس آخرها تصريحات الرئيس التونسي السابق السبسي الطاعنة في آيات المواريث بدعوى إنصاف المرأة ورفع الظلم عنها!!

ومنذ زمن قوم عاد ولليوم فإن الكفر والإعراض عن دعوة التوحيد ورسالة الأنبياء ورفض الإيمان تفتقد للدليل والبرهان وتقوم على الجهل والهوى كما قال هود عليه السلام: ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ [الأعراف:٧١]، ولذلك كلما خسر الكفار معركة نصرة الكفر بالمنطق والعلم؛ لجأوا للبطش والظلم والعدوان، فها هو هود عليه السلام يفضح عدوانهم وكيدهم: ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللّهِ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود:٥٤-٥٦].

ولكن سنة الله عز وجل ماضية في هذه القوى العاتية الظالمة والمعاندة لتوحيد الله عز وجل، وهي العقوبة والعذاب حتى يبزغ فجر أمة مؤمنة جديدة، كما قال هود عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ [المؤمنون:٣٩-٤٠]، ولما انتهى وقتهم ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاء فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون:٤١]، فللعقوبة والعذاب مهلة زمنية فلا يستيئس المؤمنون، وليثبتوا على الإيمان والحق ويصبروا قليلاً.

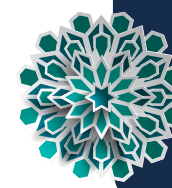

٤ صالح عليه الصلاة والسلام

أُرسل صالح عليه السلام إلى قوم ثمود، الذين خَلفوا قوم عاد، الذين أُهلكوا بدورهم بسبب كفرهم وإعراضهم عن الوحي الرباني، وكان صالحٌ عليه السلام -كسُنّة الله في اصطفاء أنبيائه - مشهوداً له بالاستقامة والفهم وحسن السمعة ﴿قَالُواْ يَاصَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا﴾ [هود:٦٢].

ولكن الكافرين سرعان ما يتناقضون مع أنفسهم حين يطالبهم الأنبياء بالعدل واتّباع الحق بالتزام توحيد الله عز وجل أولاً، وأداء الحقوق لأهلها، فيأخذون في اتهام الأنبياء والرسل بالتّهم الباطلة، ومنها الاتهام بالسحر، كما فعلوا مع صالح عليه السلام ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء:١٥٣]، و﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ [النمل:٤٧]، ولا يزال التناقض منهج الكفار -لليوم- فتراهم يكيلون التهم للمسلمين بالإرهاب والعنف زوراً وبهتاناً، فهاهم الصهاينة وترامب يتهمون الفلسطينيين بالإرهاب ونبذ السلام لرفضهم التنازل عن القدس وفلسطين للغزاة المحتلين!

وهاهم الروس، بقيادة بوتين، يتوعدون الإرهابيين في إدلب ثم يكون القصف للمستشفيات ومراكز الدفاع المدني والمدنيين!!

وتميزت ثمود بالتفوق المادي والغنى والرفاهية ﴿وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف:٧٤]، ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا

هَاهُنَا آمِنِينَ﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ [الشعراء:١٤٦-١٤٩].

ولكن ذلك لم يحُل بينهم وبين العذاب لما كذبوا رسولهم صالحاً عليه الصلاة والسلام ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ [الشمس:١١]، ﴿أَتَتْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود:٦٢].

وبعد أن عقروا الناقة ﴿فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ [الأعراف:٧٧]، وبعد أن تأمر المفسدون على قتل صالح عليه السلام ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [النمل:٤٨-٤٩]، فهذا الرقي والتقدم العمراني والرفاهية لم تغنِ عنهم حين جاء وعد الله لثمود بالعذاب ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر:٣١].

وفي واقعنا المعاصر، وبعد أن توقف استئصال الله عز وجل للأمم الكافرة والظالمة من بعد نزول التوراة،فإن تغيير أحوال الأمم والشعوب من القوة إلى الضعف ومن الغنى إلى الفقر لا يزال جارياً في الأمم والشعوب، فهذه هولندا والبرتغال وإسبانيا كانت دولاً عظيمة وذات توسعات استعمارية بعيدة، لكنها اليوم دول منطوية لا تأثير دولياً لها، وبعضها يعاني شبح الفقر كإسبانيا.

ولو أخذنا حال مصر في العهد الملكي كذلك، فقد كانت دولة غنية تُقرض إنجلترا،وجنيهها أقوى من الجنيه الإسترليني، وكانت ترسل المساعدات إلى دول الخليج والحرمين الشريفين!

لقد كان من حجج ومبررات قوم ثمود لتكذيب رسولهم صالح، عليه السلام، أنه أمرهم بمخالفة عادات الآباء والأجداد الذين انحرفوا عن التوحيد للشرك، وعن الإيمان للكفر ﴿أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود:٦٢] وهو منهج متكرر عند كفار الأمم عبر التاريخ، ولا تزال هذه الحجة، وهي اقتفاء نهج الآباء على الشر والباطل، هي مبرر كثير من الناس اليوم لرفض الحق والهدى والنور وشرائع الإسلام، إلا أن أهل زماننا زادوا في الطنبور نغمة نشاز، وهي أنهم يزوّرون نهج الآباء للباطل ثم يزعمون حرصهم على اتباعهم، ويتبدى ذلك في ادعاءات أنصار التبرج والفجور بأن الخمار والنقاب والحجاب لم تكن من أعراف المجتمعات المسلمة! وأنها عادة يهودية! وسلوك وافد! وكل ذلك لمحاربة العفة والحجاب والنقاب والخمار.

بينما الحقيقة بعكس ذلك تماماً، فالعري والتبرج والاختلاط وإسقاط الحشمة هي الوافدة على بلاد المسلمين، وكل الشهادات التاريخية للمؤرخين والرحالة والفنانين من المسلمين وغير المسلمين تثبت أن الحجاب والنقاب والخمار كانت السائدة في مجتمعات وبلاد المسلمين، وحتى بين غير المسلمين.

بل وحتى في كثير من دول العالم غير المسلم، فإن الأفلام الوثائقية والصور القديمة النادرة تثبت أن الحجاب والحشمة والنقاب والخمار كانت سلوك النساء فيها قبل موجة العري والدعارة الحالية!!

وبينما كان مبرر قوم ثمود للكفر هو تقليد الآباء حتى وإن لم يكن موقف الآباء موقفاً صحيحاً يدعمه الحق والدليل، فإن موقف صالح عليه السلام -وكل الأنبياء والمؤمنين بالغيب ورسالات الأنبياء- كان يقوم على البينة والبرهان ﴿قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةً مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ [هود:٦٣]، فموقف الأنبياء وأتباعهم هو موقف يستند للدليل والحجة

والبرهان، وهو في حقيقته موقف للتغيير الإيجابي وكسر العادات البالية والخروج من الصندوق المعتم للنور والضياء.

وقد وصف الله عز وجل تكذيب قوم ثمود لنبيّهم صالح، عليه السلام، بقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٤١] برغم أنهم كذبوا صالحاً، عليه السلام، فقط، لكن لأن دعوة صالح هي دعوة كل الأنبياء من قبله ومن بعده، وهي الدعوة للتوحيد والإيمان بالله عز وجل وحده، لذلك فإن تكذيب أيّا منهم هو تكذيب لجميع المرسلين.

ويرتبط بهذا المسؤولية الجماعية المشتركة لكفار قوم ثمود برضاهم بقتل الناقة برغم تحذير صالح عليه السلام لهم ﴿وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء:١٥٦]، واليوم؛ فإن المسؤولية تطال الكثير من الناس والمؤسسات والدول ممن رضوا وشاركوا بقتل الأبرياء من المسلمين وغيرهم، والموفّق من عصمه الله من التورط في الدماء المعصومة، والذي هو نهج الأنبياء جميعاً عليهم الصلاة والسلام.

٥ إبراهيم عليه الصلاة والسلام

على عادة الأنبياء نَصَحَ إبراهيمُ عليه الصلاة والسلام أباه خصوصاً، وقومه عموماً، باتباع هداية الوحي الذي نزل عليه، حتى يستقيموا على الصراط السوي، وأنه ينصحهم بذلك بناءً على موقف علمي ودليل راسخ ﴿يَاأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ [مريم:٤٣]، وتلازم الدين والعلم تلازم حتمي لا ينفك، ولذلك كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام دوماً ينتصرون في ميدان الحجة العلمية، ولا يجد الكفار والمشركون لهم من حجة لكفرهم ورفضهم للإيمان إلا باللجوء للبطش والعدوان كما حدث مع إبراهيم عليه السلام لما عجزوا عن الدفاع عن مصداقية آلهتهم المحطمة كان الحل ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء :٦٨]، وهذا سلوكهم -لليوم-، فحين عجزوا عن الدفاع عن صحة العري والفحش جرّموا الحجاب والنقاب والخمار وفرضوا عليه الغرامات!

ومن أهم العِبر في قصة خليل الرحمن وأبي الأنبياء تعلُّم أهمية وآداب فن الحوار والإجابة على الأسئلة الملغومة وحسن إدارة المعركة الإعلامية، والتي تعد من أهم المعارك الدائمة بين الحق والباطل والتي لا يخلو منها زمان، ولعلها في زماننا هذا في أشد مراحل استعارها.

لذلك فمن الأهمية بمكان أن يتصدر لها ويقودها من يحسن الاقتداء بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، الذين أداروا هذه المعارك بحرفية واقتدار.

فقد مدح الله عز وجل طريقة إبراهيم في إدارة الحوار وحججه العقلية مع قومه لإبطال عبادة الكواكب فقال تعالى عن نتيجة ذلك الحوار: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيم﴾ [الأنعام:٨٣]، وقد سجل القرآن الكريم حوار إبراهيم مع الأصنام ليدلل بها على بطلان عبادة الأوثان كما أبطل عبادة الكواكب من قبل ﴿فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلاَ تَأْكُلُونَ﴾ مَا لَكُمْ لاَ تَنطِقُونَ﴾ [الصافات:٩١- ٩٢] ويدل ذلك على قوة الإيمان وقوة الحجة العقلية التي يستند إليها الإيمان بالله عز وجل، ولقد وصف النبي -صلى الله عليه وسلم- تأثير حُسن البيان فقال: «إن من البيان لسحراً» رواه البخاري.

فلما جاء قوم إبراهيم يعاتبونه على ما حل بآلهتهم الباطلة وسألوه سؤالهم المفخخ: ﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَاإِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء:٦٢]، والذي يهدفون من ورائه أخذ اعتراف منه وإقرار بشكل علني يتيح لهم التنكيل به بشكل قانوني! لكنه عليه الصلاة والسلام بتوفيق الله عز وجل وفطنته وذكائه قلب كيدهم عليه بالتجاوز عن سؤالهم الملغوم ليطرح عليهم جوابه الصاعق: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء:٦٣].

مما جعلهم يقعون في الفخ الذي نصبوه له، حيث اعترفوا علنًا بعجز وضعف آلهتهم عن الدفاع عن نفسها أو الوشاية بمن حطمها، وبذلك انتصر خليل الرحمن مرة أخرى في معركة الإيمان بالحجة والبرهان و إتقان فن الحوار والإدارةو المعركة الإعلامية ودوّت كلمة التوحيد عالياً ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاَء يَنطِقُونَ﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلاَ يَضُرُّكُم﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء:٦٤-٦٧].

من العِبر المتعلقة بعقيدة التوحيد في قصة إبراهيم عليه السلام قضية علم الغيب وأنها تختص بالله عز وجل.

فقد جاءت الملائكة لإبراهيم عليه السلام على هيئة ضيوف غرباء فرحّب بهم وأكرمهم، وبرغم أنه نبي وأبو الأنبياء وخليل الرحمن لم يَعرف حقيقة ضيوفه وأنهم ملائكة، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاَمًا قَالَ سَلاَمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاء بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلاَ تَأْكُلُونَ﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لاَ تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات:٢٤-٢٨].

فإذا كان إبراهيم نبي الله عليه الصلاة والسلام لا يعلم الغيب ولا يعرف حقيقة الضيوف الذين عنده، فكيف يزعم الدجالون والمشعوذون اليوم -الذين يتستر بعضهم بزيّ العلماء- معرفة الغيب وكشف الحجب للاستيلاء على أموال البسطاء والسذج والأغبياء؟!

وكيف يُصدق المتعلمون وخريجو الجامعات، وبعضهم قد يكون مسؤولاً وشخصية رفيعة في عالم السياسة أو المال والأعمال، هذه الدعاوى الفارغة بعلم الغيب ومعرفة الفرص المستقبلية أو حقيقة الأحداث الماضية، وأبو الأنبياء لم يعرف حقيقة ضيوفه؟

ولكن الجهل بالعقيدة السليمة ومعاني القرآن الكريم والسنة النبوية وقصص الأنبياء هو الذخيرة التي يقوم عليها رواج أكاذيب الشرك والدجل، وبسببه يستولي اللصوص على أموال الناس بالباطل.

ويقابل هؤلاء الدجالين في ادعاء علم الغيب تعصب الجهلة والحزبيين لقياداتهم ومرجعياتهم بالحق والباطل، ورفض أي نقد علمي لأخطاء قياداتهم وكأنهم لا يخطئون أبداً ويعلمون الحق كله! وكلا الأمرين مخالف لمنهج الأنبياء.

ومن العِبر المهمة في قصة إبراهيم أبي الأنبياء عليه الصلاة والسلام قضية اليقين بحكمة أوامر الله عز وجل، وأن اتباع منهج الأنبياء فيه الفلاح والنجاح ولو بعد حين، ولو كانت المؤشرات لا تشير لذلك، ويتبدى هذا في هجرة إبراهيم بهاجر وإسماعيل لمكة وهي صحراء قاحلة لا شيء فيها!

قال تعالى على لسان إبراهيم: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم:٣٧].

فأخرج الله لهاجر وإسماعيل ماء زمزم، ثم جلب لهم قبيلة جُرْهم لتؤنسهم.

وبعد سنوات أُمر إبراهيمَ وابنَه إسماعيل ببناء الكعبة ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة:١٢٥]، ولكن من أين سيأتي الطائفون والعاكفون والرّكّع السجود؟ فجاء الأمر الرباني ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج:٢٧]، وفعلاً فإن الحجاج اليوم يأتون زرافات ووحداناً من كافة أرجاء العالم.

وتحققت دعوات إبراهيم عليه السلام ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَـذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [البقرة:١٢٦]، و﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمِ﴾ [البقرة:١٢٩].

فاليقين بحكمة أوامر الله عز وجل واتّباع منهج الأنبياء فيه السعادة والفلاح، ولو طال الزمن وكثرت العوائق.

٦ إسماعيل عليه الصلاة السلام

إن من أهم العبر والفوائد في القصص القرآني تصحيح المفاهيم وبيان الحق والصحيح من أخبار السابقين من الأمم والأنبياء وما جرى لهم، وتخليص البشرية من الأوهام والشائعات، وتحقيق القدوة الصالحة بخيرة البشر، وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، مما يأخذ بأيدهم للرقي والفلاح وعمارة الأرض بالحق والخير ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف:١١١].

ومن قضايا التاريخ التي تعرضت للتحريف تعيين شخصية الذبيح من أبناء إبراهيم عليه السلام، فبينما يُشيع اليهود والنصارى أن الذبيح هو إسحاق عليه السلام، وهو الابن الثاني لإبراهيم عليه السلام، وقلّدهم في ذلك بعض المسلمين! فإن القرآن الكريم يشير بوضوح إلى أن الذبيح هو الابن الأول لإبراهيم وهو إسماعيل عليه السلام، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۞ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۞ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ۞ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۞ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ۞ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۞ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۞ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ۞ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ۞ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ۞ سَلَٰمٌ

عَلَى إِبْرَاهِيمَ ۞ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۞ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ۞ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ۞ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ۞ [الصافات:٩٩-١١٣].

فهذه الآيات تقرر وجود ابنين لإبراهيم عليه السلام أولهما وهو إسماعيل تعرض للابتلاء والاختبار بالذبح، وبعد تجاوز الامتحان جاءت البشارة بالابن الثاني وهو اسحاق، واستدل الإمام محمد القرضي على أن الذبيح هو إسماعيل بتناقض البشارة بولادة إسحاق وأنه سيولد له يعقوب مع كونه هو الذبيح كما في قوله تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَقَ يَعْقُوبَ﴾[هود:٧١].

ولليوم، وبرغم ما تعرض له الإنجيل والتوراة من التحريف والتبديل والضياع ما تسبب بتناقض كثير من مواضعه إلا أن فيه إشارات تطابق رؤية القرآن الكريم، فبعض نصوص التوراة تصرح أن الذبيح هو الابن الوحيد، ونصوص أخرى تصرح بأن إسماعيل هو الابن الأول لإبراهيم عليهم السلام مما يتوافق مع القرآن الكريم.

وإنكار اليهود أن إسماعيل هو الذبيح سببه الحقد والحسد؛ لأن اليهود من ذرية إسحاق بينما العرب والنبي صلى الله عليه وسلم هم من ذرية إسماعيل، ولا يزال حسد اليهود وحقدهم على العرب والمسلمين قائماً لليوم، وهو سبب مكائدهم للمسلمين سواء في زمن الدولة العثمانية على يد يهود الدونمة، أو عبر دولتهم اللقيطة التي تسعى دوماً لقتل أهل فلسطين وتهجيرهم ونشر الإلحاد والكفر بينهم وترويج الإدمان بين شبابهم، فضلاً عن سعيها الدائم بحياكة الدسائس بين الدول المسلمة وإرسال الخلايا التجسسية، وتصدير الأفكار الهدامة لهم والمنتجات المضرة بهم كما حصل من تخريب للأراضي الزراعية عبر البذور الزراعية المهجنة والمعدلة وراثياً، وغيرها كثير.

٧ إسحاق عليه الصلاة السلام

إسحاق هو الابن الثاني لإبراهيم عليهما الصلاة السلام، ومن ذرية يعقوب بن إسحاق عليهما الصلاة والسلام جاء غالب الأنبياء في بني إسرائيل، ومن نسل إسماعيل كان نبينا محمد عليهما الصلاة والسلام ولذلك سمي إبراهيم عليه الصلاة والسلام بأبي الأنبياء.

وقد ولد إسحاق لإبراهيم بعد إسماعيل عليهم الصلاة والسلام وهو شيخ كبير، وكان أخوه إسماعيل رجلاً كبيراً، وأصبح نبياً.

من فوائد قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بيان أنهم قدوة أخلاقية للبشرية، وبيان بعض جوانب العقيدة التي تمس عالم الغيب ومنها الملائكة، فحين جاءت الملائكة لإبراهيم عليه الصلاة والسلام -على هيئة ضيوف لم يعرفهم، لأنه لا يعلم الغيب كما ذكرنا من قبل- لتخبره بإهلاك قوم لوط عليه الصلاة والسلام وتبشره بمولد إسحاق، أَسرَعَ بشكل خفي لإكرامهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُواْ سَلاَمًا قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاء بِعِجْلٍ حَنِيذ﴾ [هود:٦٩]، ليضرب لنا أبو الأنبياء المثل والنموذج في إكرام الضيف والاهتمام به ، ولذلك من ألقابه عليه الصلاة والسلام أبو الضيفان، وإكرام الضيف خُلق وعادة جميلة لا تزال تشيع بين العرب والمسلمين، بخلاف من أصابتهم لوثة المادية والفردية من الحضارة المادية المعاصرة، فأصبحت الأنانية والفردية هي الطاغية على سلوكهم، ولليوم كم كانت شمائل الإسلام كقِيم إكرام الضيف والترحيب به سبباً في هداية ألوف الناس لرحمة الإسلام ونوره.

ولما جاء إبراهيم عليه السلام بالطعام لم تأكل الملائكة منه﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود:٧٠-٧١]، وهذه الآيات تقرر لنا وجود الملائكة وتبيّن لنا شيئاً من طبيعتهم، كقدرتهم على الظهور بمظهر البشر، وأنهم لا يأكلون ولا يشربون، ولا يحتاجون ما يحتاجه بنو آدم من الطعام والشراب والتخلص منه.

ولما بشّرت الملائكة سارة زوجة إبراهيم عليه الصلاة والسلام بإسحاق، ومن ورائه حفيد هو يعقوب، تعجبت ﴿قَالَتْ يَاوَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَـذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَـذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ﴾ [هود:٧٢-٧٣]، وولادة إسحاق عليه الصلاة والسلام من مظاهر سعة قدرة الله عز وجل وأنه لا يعجزه شيء، والتي تكرر الكثير منها في قصة إبراهيم وبنيه عليهم الصلاة والسلام، منها إنجاؤه من النار، وحماية سارة من النمرود، وتفجير ماء زمزم تحت قدمي إسماعيل الرضيع، وولادة إسحاق.

وفي زماننا هذا لا تزال مظاهر سعة قدرة الله عز وجل في حياة المسلمين ونصرته وتوفيقه للمؤمنين تظهر حيناً بعد حين، فصمود أهل الشام في فلسطين وسوريا أمام جبروت اليهود والروس والشيعة والنصيرية برغم قوة عتادهم وقلة حيلة المجاهدين لهو من دلائل قوة نصر الله عز وجل للمؤمنين، ولكن أخطاء المجاهدين هي التي تتسبب في عدم اكتمال النصر، كما حدث يوم أحد، حين عصى الرماةُ الأمر العسكري الفني للنبي صلى الله عليه وسلم فحدثت المصيبة ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَـذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:١٦٥]،

ولكن المجاهدين اليوم يخالفون أيضاً أموراً شرعية أحياناً، وهذا يترتب عليه ضريبة كبيرة بتأخر النصر وعدم تمامه.

لا نجد في القرآن الكريم أو صحيح السنة النبوية تفاصيل كثيرة عن إسحاق عليه السلام وحياته، ومن القليل الوارد وصف الله عز وجل له بأنه عليم، قال تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ۝ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلاَمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝ قَالُواْ لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ ۝ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝ قَالُواْ بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ۝ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ﴾ [الحجر:٥١-٥٦]، فوصف ربنا سبحانه وتعالى إسحاق بأنه غلام عليم، وكان سبحانه قد وصف أخاه الأكبر الذبيح إسماعيل عليهما الصلاة والسلام بأنه حليم في قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ۝ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلاَمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات:١٠٠-١٠١].

وهذه الصفات ظاهرة في قصة كلٍّ منهما، فإن إسماعيل تعرض لامتحان الذبح فصبر وحلم ورضي بأمر الله عز وجل، وإسحاق عاش وكبر وأصبح عالماً ونبياً من الصالحين وإمامًا للناس.

ومما ذكره الله عز وجل في القرآن الكريم عن إسحاق عليه السلام أنه على منهج الأنبياء من قبله وبعده على دين التوحيد، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [النساء:١٦٣].

فدين الإسلام وعقيدة التوحيد يشترك فيهما جميع الأنبياء وعرفتهما كل الأمم السابقة، إذ كل أنواع وصور الشرك والكفر التي عرفتها البشرية هي انحراف

عـن منهـج الأنبيـاء واتّبـاع شريعـة الرحمـن، والـتي هي أصـل الفطـرة الإنسـانية، ووحـدة العقيـدة وأصـول الشريعـة بـين الأنبيـاء بيّنها الله عـز وجـل في مـا أخـبرنا بـه عـن إسحـاق، فقـال تعـالى: ﴿وَوَهَبْنَـا لَهُ إِسْـحَقَ وَيَعْقُـوبَ نَافِلَـةً وَكُلاًّ جَعَلْنَـا صَالِحِـينَ﴾ وَجَعَلْنَاهُـمْ أَئِمَّـةً يَهْـدُونَ بِأَمْرِنَـا وَأَوْحَيْنَـا إِلَيْهِـمْ فِعْـلَ الْخَـيْرَاتِ وَإِقَـامَ الصَّـلاَةِ وَإِيتَـاء الـزَّكَاةِ وَكَانُـوا لَنَـا عَابِدِيـنَ﴾ [الأنبيـاء:٧٢-٧٣]، ولهـذا أنكـر الله عـز وجـل دعـوى نسـبة الأنبيـاء لأديان محرفـة، فقـال جـل وعـلا: ﴿أم تقولـون إن إبراهيـم وإسـماعيل وإسـحاق ويعقـوب والأسـباط كانـوا هـوداً أو نصـارى قـل أأنتـم أعلـمُ أم الله﴾ [البقـرة:١٤٠].

ومـن العِـبر في قصـة إسحـاق عليـه الصـلاة والسـلام أن النسـب الكـريم لا يغـني عـن الإيمـان والعمـل الصـالح لقـوله تعـالى: ﴿وبشّرنـاه بإسـحاق نبيـاً مـن الصالحـين﴾ وباركنـا عليـه وعلى إسـحاق ومـن ذريتهمـا محسـنٌ وظالمٌ لنفسـه مبـين﴾ [الصافـات:١١٣]، وفي هـذا رد صريح عـلى مـزاعم اليهـود بأنهـم أحبّـاء الله وشـعبه المختـار بنـاءً عـلى انتسـابهم ليعقـوب وإسحـاق فقـط.

٨ لوط عليه الصلاة السلام

لـوط عليـه الصـلاة والسـلام كان أحـد المؤمنـين بنبـوّة إبراهـيم عليـه الصـلاة والسـلام لقوله تعـالى: ﴿فَآمَـنَ لَهُ لُـوطٌ وَقَـالَ إِنِّي مُهَاجِـرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّـهُ هُـوَ الْعَزِيـزُ الْحَكِيـم﴾ [العنكبـوت:٢٦]، ثم اصطفـاه الله عـز وجـل وجعـله نبيـاً ورسـولاً وبعثـه إلى قـوم فشـت فيهـم الفاحشـة الشـنيعة، قـال تعـالى: ﴿وَلُوطًـا إِذْ قَـالَ لِقَوْمِـهِ أَتَأْتُـونَ الْفَاحِشَـةَ مَـا سَـبَقَكُم بِهَـا مِـنْ أَحَـدٍ مِّـن الْعَالَمِـين﴾ إِنَّكُـمْ لَتَأْتُـونَ الرِّجَـالَ شَـهْوَةً مِّـن دُونِ النِّسَـاء بَـلْ أَنتُـمْ قَـوْمٌ مُّسْرِفُـون﴾ [الأعـراف:٨٠-٨١].

فهـذه الفاحشـة - وهي إتيـان الذكـران والشـذوذ الجنسي- لم تعرفهـا البشريـة قبلهـم، وقـد كـرر القـرآن الكـريم هـذه الحقيقـة التاريخيـة في قـوله جـل وعـلا: ﴿وَلُوطًـا إِذْ قَـالَ لِقَوْمِـهِ إِنَّكُـمْ لَتَأْتُـونَ الْفَاحِشَـةَ مَـا سَـبَقَكُم بِهَـا مِـنْ أَحَـدٍ مِّـنَ الْعَالَمِـين﴾ أَئِنَّكُـمْ لَتَأْتُـونَ الرِّجَـالَ وَتَقْطَعُـونَ السَّـبِيلَ وَتَأْتُـونَ فِي نَادِيكُـمُ الْمُنكَـرَ﴾ [العنكبـوت:٢٨-٢٩].

وبالتأكيـد فإن ذلـك بـدأ فيهـم بشـكل محـدود، ثم انتشر بينهـم وأصبـح سِمـة عامـة، ويقـع بشـكل علنـي ومبـاشر ولا يتحرَّجـون منـه، قـال تعـالى عـن حالهـم البغيـض: ﴿وَتَأْتُـونَ فِي نَادِيكُـمُ الْمُنكَـرَ﴾، وقوله تعـالى: ﴿أَتَأْتُـونَ الْفَاحِشَـةَ وَأَنتُـمْ تُبْـصِرُون﴾ [النمـل:٥٤].

ومما يدلّل على مجاهرتهم بالفاحشة وقاحتهم في مطالبة نبي الله لوط عليه السلام بتسليمه ضيوفه لفعل الفاحشة بهم ﴿وَجَاءهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود:٧٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ﴾ [القمر:٣٧]، بل بلغت وقاحتهم أن عاتبوا لوطاً عليه السلام على نهيه لهم عن الفاحشة بضيوفه ﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [الحجر:٧٠].

وقد عاقب الله عز وجل قوم لوط عليه السلام وأهلكهم بسبب إصرارهم على كفرهم وعلى فاحشتهم ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر:٣٣-٣٤]، وقال جل جلاله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر:٧٣-٧٤].

وبرغم إهلاك الله عز وجل وعذابه لقوم لوط على كفرهم وفحشهم وشذوذهم، إلا أن أقواماً كثراً قلدوهم في الفاحشة، فأصابتهم الكوارث والعقوبات الربانية، ولعل من تلك النماذج قرية «بومبي Pompeii» الإيطالية قرب مدينة «نيبلس»، والتي اشتهرت في التاريخ بفحشها، فسلّط الله عليها بركاناً قتل كل سكانها وبقيت جثثهم عبرة للناس حتى اكتشفت من عقود قريبة.

وكأن التاريخ يعيد نفسه في هذا الزمان، حيث عادت فاحشة الشذوذ للانتشار والمجاهرة والعلنية والجماعية بعد الثورة الجنسية في الغرب قليلاً قليلاً.

فحتى عام ١٩٩٦م كان الشذوذ في الغرب لا يملك القوة والجرأة للظهور العلني، ولكن شياطين الإنس والجن بقوا يعملون بجد في الباطل حتى أصبحت هذه الفاحشة في الغرب علنية وقانونية و(شرعية) وأصبح لها دعاة ومؤسسات يعملون ليل نهار لفرض قانونيتها وشرعيتها على كافة سكان الأرض، وعلى كافة الأديان،

بقوة التشريع الدولي عبر قوانين ومواثيق الأمم المتحدة التي لا تلزم أحداً في قضايا الحقوق العادلة كقضية فلسطين، بينما قضايا الشذوذ والإباحية والردة تلقى كل دعم وفرض وإلزام!!

فعلى الدعاة وأتباع الأنبياء اليوم التصدي بكل قوة لهذا الفساد الأخلاقي الذي يستلزم فساد العقيدة وأنواعاً كثيرة من الفساد، منها خطف الأطفال والنساء ونشر الدعارة، وقد وصف ذلك ربنا فقال في شأن فساد قوم لوط المصاحب لفاحشتهم: ﴿وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ﴾، وذلك حتى تنعم البشرية جمعاء بالأمن والأمان.

من أهم العِبر في قصة لوط عليه الصلاة والسلام لعصرنا أن دعاة الفاحشة والشذوذ يعلمون خطأ ما يفعلون وأنه ضار ومخالف للفطرة والخلق السوي، ولذلك عاتبهم لوط عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف:٨١]، فهو يصفهم بالإسراف في ارتكاب الحرام وتجاوز الحق وتفريغ الشهوة في غير محلّها، هذا الإسراف في الحرام وتجاوز الفطرة الذي يزيد مع الأجيال الجديدة من أهل الكفر والفواحش حيث أصبح للشذوذ صور أكثر شذوذاً من جريمة قوم لوط!

كما أن لوطاً عليه السلام وصف قومه فقال: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء:١٦٥-١٦٦]، فهم معتدون متعمدون لتجاوز الحق والصواب والفطرة السوية وارتكاب الحرام والفاحشة، ووصفهم أيضاً: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل:٥٥]، وليس هذا جهل العلم والمعرفة، بل هو جهل الطيش والاستخفاف والعناد واتباع الهوى، وكم أودى جهل الطيش هذا بكثير من شبابنا وشاباتنا اليوم فوقعوا في براثن الفاحشة والشذوذ والخمر والمخدرات.

ومما يدل على أن أهل الفاحشة والشذوذ من قوم لوط عليه السلام كانوا معتدين متعمدين ومسرفين عن إصرار وهم متهورون مصرون على اتباع شهواتهم المنحرفة أن نبياً من أنبياء الله يعظهم وينهاهم فلا يستجيبون لنصحه! ويحذرهم من غضب الجبار وعذابه الأليم فلا يكون جوابهم إلا جهلاً وطيشاً وعدواناً وإسرافاً في الكفر ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت:٢٩-٣٠]. وفي زماننا هذا فإن هذه الفاحشة وهذا الشذوذ يجتمع على نبذه وتحريمه غالب الأديان والعقلاء من الناس، كما أن العلم الصحيح يؤكد أن هذه الفاحشة ومخالفة الفطرة هي السبب الأكبر والأساس لكثير من الأمراض وعلى رأسها الإيدز.

فضلاً عن مخالفة هذه الفاحشة حتى لنظرية التطور الإلحادية، إذ لا يمكن أن تستمر الحياة مع الشذوذ!

وبرغم كل هذا، فإن شياطين الإنس والجن يسعون وبكل قوة لشرعنة هذا الباطل وفرضه على البشرية كافة وتزويقه وتجميله برغم كل قبائحه ونتانته ومفاسده ومضاره عناداً وإسرافاً.

ومن العِبر المهمة من هذا التاريخ المظلم لأهل هذا الزمان ملاحظة الدعاة والآباء والأمهات لتحذير النبي صلى الله عليه وسلم لنا من مبالغة سفهائنا نحن المسلمين في تقليد فواحش الكفار والملحدين في نهاية الزمان في قوله العام:« لتتبعنّ سَنن من كان قبلكم شبراً شبراً وذراعاً ذراعاً حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم» رواه البخاري، وهناك أحاديث أخرى تنص على متابعتهم في الفواحش المستبشعة أيضاً، والواقع في بلاد الإسلام اليوم يتطابق مع هذه الأخبار الغيبية للنبي عليه الصلاة والسلام، فبعض أبناء المسلمين

يطالب بإباحة الفواحش والشذوذ والإباحية المطلقة فضلاً عمّا نراه من العري الفاضح والتبرج الصارخ حتى إن الحجاب الذي ترتديه كثير من الشابات أصبح بذاته من التبرج والعري! ولعل القادم من التبعية والتقليد سيكون أسوأ!!

وهذا يستوجب من الدعاة تكثيف الجهود بالوقاية والتوعية للقطاعات التي لم تتلوث بعد، والتركيز على الشرائح المصابة بخطاب دعوي يجمع بين الموعظة والزجر ومخاطبة ما بقي من عقل بمخاطر هذه الفواحش والشذوذات.

٩ شعيب عليه الصلاة والسلام

تكررت قصة شعيب عليه الصلاة والسلام في القرآن الكريم عقب قصة لوط عليه الصلاة والسلام، في إشارة للترتيب الزمني للأنبياء، ويؤيد ذلك تصريح شعيب عليه السلام نفسه في قوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود:٨٩]، ويبدو أن قوم لوط وقوم شعيب عليهما الصلاة والسلام كانوا قريبين في الزمان والمكان.

وقصة شعيب عليه السلام في القرآن الكريم تكاد تكون قصة نموذجية لمسيرة الدعوات الربانية عبر الزمن والتاريخ، فالبداية والأولوية في دعوة شعيب عليه السلام لقومه -كبقية الأنبياء- هي الدعوة للتوحيد وعبادة الله عز وجل، ومن ثم كان علاج الآفات الاقتصادية التي تفشّت بينهم على قاعدة أن ذلك من الفساد المحرم الذي لا يرضاه الله عز وجل ﴿يَاقَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ۞ وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۞ بَقِيَّةُ اللّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [هود:٨٤-٨٦].

وكعادة الدعوات الربانية تجد صداً وعناداً من النخبة الظالمة التي ترى في الرسالات النبوية حداً لإفسادها وزجراً عن طغيانها، ولضعف حجتها

تهرب للتهديد والوعيد ﴿قَالُواْ يَاشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود:٩١]، ولما ثبت شعيب عليه السلام على الحق ولم تزعزعه هذه التهديدات الفارغة، تحول الملأ لمحاولة تخويف وتهديد المؤمنين كما بيّن تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٠]، ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ [الأعراف:٨٨]، في وقاحة لا تزال متوارثة بين أجيال الطغاة بطرد المؤمنين أو إجبارهم على قبول باطلهم!

ورغم ذلك خاطبهم شعيب عليه السلام بأن لا يجعلوا القضية شخصية فقال لهم: ﴿وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾، لكنهم سخروا منه وطلبوا العذاب ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاء إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء:١٨٧]، فيوصي شعيب عليه السلام المؤمنين به بالصبر﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُواْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَاصْبِرُواْ حَتَّى يَحْكُمَ اللّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف:٨٧]، فتكون العاقبة ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف:٩١-٩٢]، حتى يدرك المؤمنون أن الزمن يعمل دوماً لصالح منهج الأنبياء ومن يصبرون على الثبات عليه.

لا زال في قصة شعيب، عليه الصلاة والسلام عِبر كثيرة للمؤمنين في هذا العصر، فبرغم كفر قومه وعنادهم الدائم لدعوته ونبوته إلا أن شعيباً، عليه الصلاة والسلام، بقي ثابتاً على دعوته، مخلصاً لها في وجه كل إساءاتهم

وتطاولهم وعنادهم، وهذا الثبات على الحق من سنن الأنبياء الواجب اتباعها من المؤمنين والدعاة في كل عصر، وخاصة في عصرنا هذا الذي يتكاتف فيه أهل الباطل ضد المؤمنين برغم شدة صراعات أهل الباطل فيما بينهم!

ومع هذا الثبات على الحق من شعيب عليه السلام كان هناك اليقين التام بالنصر والفوز في الدنيا والآخرة كما بيّن ذلك ربنا في قوله عن حال شعيب مع قومه: ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُواْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيب﴾ [هود:٩٣]، والواجب على المؤمنين اليوم اليقين بتحقق موعود الله عز وجل لأهل الإيمان من النصر والتمكين وهزيمة الكفار المعتدين، ولو طال الزمن واشتد الكرب، ولنا في تحرر غالب بلاد الإسلام من ربقة الاحتلال رغم تطاوله لعدة قرون فى بعض الحالات، وفي زماننا هذا فإن المقاومة الفلسطينية والثورة السورية ضربتا أروع الأمثلة في قوة الحق برغم ضعف الإمكانيات وشدة قوة الباطل وتحالفاته، ولكن لوجود نقص في الإيمان لا يتحقق النصر التام كما تسبب عصيان الرماة يوم أُحد في تخلف غلبة المؤمنين على الكفار.

ومن العِبر التي تعلمنا إياها قصة شعيب عليه الصلاة والسلام؛ بيان سنة الأنبياء ومنهجهم في كيفية مواجهة ظلم وطغيان النخبة والملأ وذلك ببيان أنه لا غرض أو مصلحة مادية خلف الدعوة للتوحيد، بل الغاية والهدف الحرص والخوف على مصلحة الناس، حيث صرّح شعيب عليه الصلاة والسلام بذلك فقال: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِين﴾ [الشعراء:١٨٠]، وإن منهج الأنبياء في مواجهة الظلم والطغيان هو ببيان فضل التوحيد والعدل، وأثرهما على حياة الناس، والتحذير من عاقبة الظلم والفساد عليهم ﴿وَاذْكُرُواْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُواْ

﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:٨٦]، وقوله: ﴿إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [هود:٨٤].

ومع إصرار وعناد المكذبين والكافرين على الظلم والطغيان، فإن منهج الأنبياء - ومنهم شعيب عليه الصلاة والسلام - هو الثبات على الحق ومواصلة الإصلاح بقدر الإمكان ﴿قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىَ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود:٨٨].

فالثبات على الحق وبيانُه ومواصلة العمل الإيجابي بقدر الإمكان، واعتبار الزمن من أدوات النصر هو نهج الأنبياء في التغيير، وهو السبيل الذي يوصل المؤمنين إلى غايتهم.

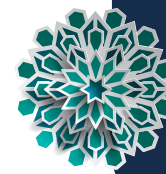

١٠ يعقوب عليه الصلاة والسلام

يعقوب عليه الصلاة والسلام هو ابن إسحاق عليه الصلاة والسلام، وحفيد إبراهيم عليه الصلاة والسلام، والذي كانت الملائكة قد بشّرت إبراهيم وزوجته به وبأبيه ﴿قَالَتْ يَاوَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود:٧١] وفي قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ [الأنبياء:٧٢]، وفي هذه البشارة إشارة لطول بقاء إبراهيم وزوجته حتى يريا حفيدهما يعقوب برغم أن مجيء إسماعيل وإسحاق كان وقد تقدمت سنّه ﴿الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ﴾ [إبراهيم:٣٩].

وبذلك يكون يعقوب من عائلة أنبياء، فأبوه إسحاق نبي، وجدّه إبراهيم نبي، وعمه إسماعيل نبي، وابنه يوسف سيكون لاحقاً نبياً، ولذلك وصفهم النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام» رواه البخاري. وسبق أن ذكرنا أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام سُمّي بأبي الأنبياء لكون النبوة حُصرت في ذريته بين الفرع الإسرائيلي/ يعقوب، والذي جاء من ذريته أنبياء كثيرون، وختمت النبوة في ذرية يعقوب بنبوّة عيسى عليه الصلاة والسلام، والفرع الإسماعيلي الذي ختم بنبيّنا محمد عليه الصلاة والسلام.

لم يفصّل القرآن الكريم والسنة النبوية كثيراً في قصة يعقوب عليه الصلاة والسلام، ولذلك ينبغي الحذر من كثير من الأخبار والقصص حول شخصية

يعقوب عليه الصلاة والسلام، والتي ليس لها مصدر إلا تحريفات التوارة والمليئة بالطعن فيه عليه الصلاة والسلام، والطعن بالله عز وجل، وهذا موطنٌ مُهم لأخذ العبرة بالتباين بين الوحي الخاتم المحفوظ، وهو القرآن الكريم، وبين الكتب السماوية السابقة التي تعرضت للتحريف والتبديل، ولذلك تجد في الكتب السماوية السابقة والمبدلة والمحرفة الطعن والذم لله عز وجل ونسبة النقص للرب سبحانه وتعالى، وتجد فيها سبّ الأنبياء والحطّ من شأنهم، بخلاف القرآن الكريم الذي نفى كل نقص عن الله جل جلاله، وأثبت له كل كمال وجلال، ومدح أنبياء الله كلهم وجعلهم قدوة للعالمين.

ولنا في قصة التوراة المفتراة على الله عز وجل ويعقوب عليه الصلاة والسلام نموذجاً لهذا الفارق بين مستوى التبجيل والاحترام والتعظيم لله عز وجل ولأنبيائه بين الوحي الخاتم (القرآن الكريم) وبين الكتب المحرفة والمبدلة، فمن أمثلة تحريف وتبديل التوراة ما افتراه المجرمون من قصة صراع الله عز وجل مع يعقوب عليه السلام وتغلّب يعقوب على الرب، تعالى الله عن ذلك، فإن هذا من أبطل الباطل، ومن الكفر الصراح البيّن بعظمة الله سبحانه وقدرته وقوته، لأن الله عز وجل هو ﴿ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٨]، ويعقوب وبقية الأنبياء لديهم من الأدب والإجلال لله عز وجل ما يتنافى مع هذا العبث والتشويه الفاجر لصورة الأنبياء عليهم السلام.

١١ يوسف عليه الصلاة والسلام

تتميز قصة يوسف عليه الصلاة والسلام بكونها من القصص التي ذُكرت في موضع واحد، وبسورة سميت بسورة يوسف، وهي سورة مكية، وفيها بسط لكثير من تفاصيل قصته عليه الصلاة والسلام، وذلك لمواساة النبي صلى الله عليه وسلم ورفع معنوياته والمسلمين وتثبيتهم، حيث نزلت سورة يوسف في مرحلة عصيبة مرت بالمسلمين، وهي فترة عام الحزن وحصار النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في الشِّعب، فقصّ الله عز وجل على نبيه وأصحابه قصة نبي كريم تعرض لصنوف متعددة من الفتن والمحن والابتلاءات انتهت بتصدره لكرسي الوزارة ومجيء أهله واعتراف إخوته وندمهم على إيذائه، وذلك بشرى وتسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالنصر والفوز القادم عقب المحنة.

وتحتوي قصة يوسف عليه الصلاة والسلام على عِبر كثيرة جداً، وقد كتب الكثير من العلماء كتباً خاصة فيها، منها كتاب العلامة السعدي صاحب التفسير، وسمى كتابه «فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام»

اذاً في قصة يوسف عليه الصلاة والسلام عِبر كثيرة ومتنوعة، لكنني أختار منها عبرتين تمسان واقعنا المعاصر بشكل مباشر، العبرة الأولى هي تورّط إخوة يوسف عليه الصلاة والسلام في الغيرة والحسد له على حب أبيه له، مما دفعهم للكيد له والمكر به حتى أبعدوه عن أبيه يعقوب بخداعه عليه الصلاة والسلام، سواء بطلب خروجه ليلعب معهم أو بوضع دم على قميصه.

وقد كان يعقوب -حين قص عليه يوسف عليهما الصلاة والسلام ما رآه في المنام- قد أدرك أن إخوته قد لا يتحملون هذا التميز ليوسف عليهم، وقد يسعون في أذيّته، فقال ليوسف: ﴿قَالَ يَابُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف:٥]، ونحن لا نزال نعاني من كيد وحقد وحسد الإخوة لإخوتهم بتحريض وتحريش الشيطان بدلاً من الفرح لتميزهم، فكثيرة هي الخلافات والمنافسات والخصومات غير الشريفة بين الدول والجماعات والقيادات، والتي باعثها الحسد والحقد والتحريش الشيطاني، بدلاً من التكامل والتعاون والتناغم.

ومتى استحضر الإنسان قدرة الشيطان والهوى والإعجاب بالنفس على غمط الناس حقوقهم وزرع الشقاق والبغضاء في غير موضعها، كان الوعي بخطورة هذا المسلك على نهضة الأمة وتقدمها حادياً للفرح بنجاح الآخرين والسعادة والرضى بحصول المصلحة الجماعية، ومتى غاب هذا الوعي دبّت في الأمة روح التفتت والخصام، وسادت سياسة عرقلة الآخرين، لا لسبب سوى الحقد والحسد!

وفي جانب آخر للعبرة والتعجب في هذه النقطة أن هؤلاء الإخوة الذين حقدوا على طفل صغير، هو أخوهم، هم الأسباط أصول وأجداد اليهود!

وهذا يكشف لنا عن النفسية المريضة لليهود من قديم الزمان حيث أنهم حقدوا على أخيهم لأنه يحظى بحب أبيه!

﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف:٧-٨]، ومع الحقد والحسد لطفل صغير لا يملك من أمره

شيئاً نجدهم يطعنون في أبيهم، ولا يراعون أنه نبي مرسَل، فلا يحترمون سنّه ولا قرابته ولا نبوّته! وهذا وحده كفيل بفهم سبب خسة النفسية المريضة التي تقود السياسة اليهودية اليوم في مجالات شتى.

ومن العِبر والفوائد المهمة لحاضرنا الاستفادة من قصة نجاحه عليه الصلاة والسلام في إدارة الدولة وإنقاذ مصر من المجاعة، وقد توقف العلماء كثيراً عند هذه النقطة لتأصيل جواز تولي الولايات العامة في الدول والأنظمة غير المسلمة لإقامة العدل والحق، ولو بشكل غير كامل، لقوله عليه الصلاة والسلام: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٥٥-٥٦]، فهنا يوسف يطلب تولي إدارة الخزائن، والتي توازي وزارة المالية أو التموين اليوم، ولكن مع توليه هذه الولاية لم يكن يستطيع إقامة كل الحق والدّين ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ [يوسف:٧٦].

ويمكن أن نلخص نجاح منهجية يوسف عليه الصلاة والسلام في إدارة الدولة في نقطتين هما: امتلاك الرؤية والحل لمشكلة المجاعة والجائحة المستقبلية، وتوفر الإمكانات والقدرات.

فامتلاك الرؤية والحل يتجلى بتأويل يوسف عليه الصلاة والسلام لرؤيا الملك كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ [يوسف:٤٧-٤٨] فلم يكتفِ يوسف عليه الصلاة والسلام بتفسير الرؤيا، بل أضاف لها تقديم رؤية للحل والعلاج وإرشادهم ونصحهم كيف يواجهون الكارثة.

وتوفر الإمكانات والقدرات يعبّر عنه قوله تعالى: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾، وهي الإمكانات المناسبة للعلاج ومواجهة الأزمة بالعلم، والذي تجلى في معرفته لطرق إدارة المخزون والمحافظة عليه والأمانة.

وهذا المنهج النبوي هو المنهج الأمثل في إدارة الدول، وهو الجمع بين الرؤية العلاجية السليمة والقدرات والإمكانات المناسبة مع الأمانة والاستقامة، وهي تلخص الحلقة المفقودة اليوم في إدارة كثير من الدول الإسلامية والمتمثلة بغياب اجتماع رؤية للحل عند أهل الاستقامة والقدرات.

ومَن تأمل ودرَس تجربة رئيس الوزراء مهاتير محمد في ماليزيا، والرئيس رجب طيب أردوغان في تركيا، سيجد أن حجز الزاوية في نجاحهما هو امتلاكهما رؤية سليمة للعلاج لأزمات وتحديات بلادهما وتوفر قدرات قيادية من:تخطيط ومتابعة ومثابرة ومرونة ومحاربة الفساد وتعظيم الأمانة.

أما في دول أخرى فهناك عنصر مفقود، إما وجود كفاءات لكنها تفتقد للرؤية بسبب أنها -غالباً- من خارج إطار مؤسسات الدولة فلا تعرف كيف تدار الأمور وما هي عيوبها ومواطن علاجها، وإما تتوفر رؤية وحلول جيدة لكن ينقص القيادة المهارات القيادية اللازمة لتطبيقها، أو تكون منظومة الفساد أقوى، أو هناك نقص في الأمانة.

الخلاصة؛ نجاح منهج يوسف في الحكم -وقد تولى الحكمَ عدد من الأنبياء منهم يوسف وداود وسليمان ومحمد عليهم الصلاة والسلام- يقوم على امتلاك رؤية للحل وقدرات للتنفيذ والتحلي بالأمانة.

١٢ موسى عليه الصلاة والسلام

تنوعت طرق عرض قصص الأنبياء في القرآن الكريم، سواءً من ناحية تجزئتها وتكررها في أكثر من سورة كقصة موسى عليه الصلاة والسلام، أو أن تورد في مكان واحد كاملة بلا تكرار، أو أن يتناول القرآن الكريم تفاصيل قصة النبي من المهد، ويورد كثيراً من تفاصيل حياته كما في قصة موسى عليه الصلاة والسلام، أو أن يتناول قصة النبي بإجمال واختصار.

ولقد كانت قصة موسى عليه الصلاة والسلام من أكثر قصص الأنبياء التي وردت في القرآن الكريم، حيث ورد اسم موسى عليه الصلاة والسلام في ٣٤ سورة من سور القرآن الكريم. ومع كثرة تكرار قصة موسى وتفاصيلها فإن ما عرضه القرآن الكريم ما هو إلا جزء وبعض منها لقوله تعالى: ﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [القصص:٣]، فكل ما عرفنا القرآن من قصة موسى هو (مِن نبأ) وليس كل النبأ.

ومن أول العِبر في قصة موسى عليه الصلاة والسلام التفكر في الحكمة اللطيفة الخفية في إيكال مسؤولية رعاية موسى عليه الصلاة والسلام وتنشئته إلى عدوّه فرعون! كما قال تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨]، وفي هذا إشارة لبالغ حكمة الله عز وجل في مجريات الأحداث، وأن الزمن والزمن الطويل جزء من تدبير الله عز وجل للأمم والمؤمنين، فلا يستعجل المؤمنون، ولْيصبروا وليستقيموا على مراد الله عز وجل وليثبتوا على دينه. ومَن تأمل في الطريقة التي حفظ بها الله عز

وجل موسى عليه الصلاة والسلام من القتل على يد جنود فرعون وهو رضيع سيجد أن ذلك تم من خلال إلقائه في البحر! ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٧]، حتى يدرك المؤمنون أن أمر الله عز وجل فيه النجاة والفلاح مهما بدا في ظاهر الأمر غير ذلك.

وهذا الاختبار بالثبات على أمر الرب في المدلهمات هو الذي يكشف حقيقة العبودية والإيمان بالله عز وجل في قلوب المؤمنين والمؤمنات، ولنأخذ العبرة من عاقبة نشأة موسى عليه الصلاة والسلام في قصر فرعون حيث حفظه الله عز وجل من الزيغ والركون لفرعون وباطله وظلمه وبلغ أشده ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه:٣٩]، فلنحذر من الرؤية السطحية للأشياء ولنثق بالحكمة الربانية والأمر الشرعي ففيهما النجاة والفوز. وكم تحتاج أمتنا اليوم إلى:

- الثبات على أمر الله عز وجل وهي تعالج ظلم الظالمين وجور الداخل والخارج حتى تتجاوز المحنة، وذلك من خلال الصبر على أقدار الله عز وجل المرة، والاستقامة على أوامر الشرع التي قد تبدو قاسية ولا تعالج الجور بشكل مباشر.

- واتخاذ الأسباب الشرعية بأداء ما علينا من حقوق شرعية وتقليل الشر ما أمكن والإقلاع عن المعاصي والذنوب الفردية والجماعية والخاصة وذات الشأن العام، وبذلك يتحقق الإصلاح ونقوى على مدافعة الظلم ويتنزل علينا نصرُ الله عز وجل.

وفي قصة موسى عليه الصلاة والسلام الكثير من العبر والعِظات، لكونها من أطول قصص الأنبياء والرسل في القرآن الكريم، ولذلك لا يمكن المرور على الكثير منها في هذه المساحة المحدودة. وستكون وقفتنا مع منهج موسى عليه الصلاة والسلام في إدارة الحوار والمناظرة مع طاغية مستكبر كفرعون، وهو الحوار الذي سجلته آيات عديدة في سورة طه وسورة الشعراء.

ومما يلفت النظر أن الحوار الذي سجلته آيات سورة الشعراء يوحي بأنه كان بحضور مستمعين من أتباع فرعون، ولذلك كان من منهج كليم الله موسى عليه الصلاة والسلام الحرص على دعوة هؤلاء واستغلال الفرصة والمنبر الإعلامي الذي أتاحه له الطاغية فرعون لدعوة هؤلاء الملأ والنخبة، وتعريفهم برسالته ودينه،وفي هذا عبرة لنا في هذا العصر باستغلال كل منابر الإعلام لتبليغ رسالة التوحيد ودعوة الله للبشرية جمعاء.

وكان من نهج موسى عليه الصلاة والسلام في هذا الحوار الحفاظ على هدوئه برغم استفزاز فرعون له بالاستهزاء بالله عز وجل، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:٢٣].

فلم ينفعل موسى عليه الصلاة والسلام؛ بل أجابه بثقة وهدوء ويقين: ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء:٢٤]، ونجد هنا أن موسى عليه الصلاة والسلام وجّه خطابه إلى الحاضرين بقوله ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ وحاول أن يشركهم معه في الحوار، ولم يقتصر على مخاطبة فرعون، فتدخل فرعون الطاغية وحاول قطع الكلام عن موسى حين شعر أنه قد يسحب البساط من تحته بحوار موسى مع الأتباع و﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلاَ تَسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء:٢٥]، فتجاهله موسى عليه الصلاة والسلام وأكمل حواره مع الحاضرين: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:٢٦].

ولم يجد فرعون وسيلة ليبطل قوة حجة موسى عليه الصلاة والسلام إلا حجة «المفاليس» بالهجوم الشخصي على موسى ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾[الشعراء:٢٧]، فتجاهله موسى وأكمل حديثه: ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء:٢٨]، فلم يبقَ لفرعون إلا إنهاء الحوار بالتهديد والوعيد ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِى لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾[الشعراء:٢٩].

ومعلومٌ أن فرعون خسر هذا الحوار ثم خسر التحدي يوم الزينة، وآمن سحرتُه بموسى عليه السلام ثم خسر حياته غريقاً حين حاول القبض على موسى عليه الصلاة والسلام.

وموطن العبرة في هذا الموضع من قصة موسى عليه الصلاة والسلام أن اتّباع نهج الأنبياء في الحوار والمناظرة يكون بالطرح الهادئ والعميق المدعم بالحجة الشرعية والعقلية، والتركيز على مخاطبة الجمهور وترك ملاحقة مقاطعات ومهاترات المتعصب الجاهل الفاقد للحجة كفرعون.

ومَن تابع حوارات الشيخ عثمان الخميس والشيخ العريفي مع الشيعة على قناة المستقلة سيجد كيف أثّر هذا المنهج النبوي في كسب قلوب آلاف بل ملايين الناس من الشيعة والسنة لمنهج السنة بهدوء المشايخ وحجتهم الناصعة وعدم انشغالهم بالمهاترات من الخصم.

١٣ هارون عليه الصلاة والسلام

لا يَعرض القرآن الكريم ولا السنة النبوية الكثير من المعلومات عن نبوّة وحياة هارون، عليه الصلاة والسلام، برغم معايشته ومرافقته لأخيه موسى، عليه الصلاة والسلام، وطول قصته في القرآن الكريم، وهذا يبيّن دقة طلب موسى عليه الصلاة والسلام من ربه؛ ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ هَارُونَ أَخِي﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ [طه:٢٩-٣٢]، فهارون كان وزيراً ومساعداً لموسى عليه الصلاة والسلام، وهذا واضح في قصة موسى عليه الصلاة والسلام ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا﴾ [الفرقان:٣٥].

ومن العِبر المهمة في قصة هارون عليه الصلاة والسلام أهمية ذكر الله عز وجل في مقارعة الظالمين والطغاة، وأنه مِن أهم الأسباب الشرعية لتحقيق النصر والفوز، فقد أمر الله عز وجل موسى وهارون بدعوة فرعون وقومه لتوحيد الله عز وجل وعبادته، فخاطب الله سبحانه وتعالى موسى فقال: ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ [طه:٤٢-٤٣].

والأمر بذكر الله عز وجل عند مجابهة الأعداء تكرر في القرآن الكريم، كما في قوله جل وعلا: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ﴾ [الأنفال:٤٥]، وذِكْر الله عز وجل يكون بيقظة القلب أولاً، لأن المعين والناصر هو الله عز وجل، وأن

هذا الجهد والجدال والجهاد هو لأجله سبحانه وتعالى، ومن ثم ينساب تذكر ويقظة القلب للّسان، فلا يفتر عن ذكر الله عز وجل وتعظيمه وتسبيحه ﴿وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾، فإذا كان الأنبياء أُمِروا بكثرة ذكر الله عز وجل عند المواجهة والنزال فإن سائر المؤمنين مأمورون بذلك من باب أولى.

واليوم ونحن نعايش هجمة علمانية وإلحادية عاتية إعلامية وفكرية وإقصائية، بعضها بشكل صريح ومكشوف، وبعضها مستور يتخفى عبر شعارات تجديد الخطاب الإسلامي أو تطوير الحالة الإسلامية أو بدعوى محاربة الإرهاب والتطرف أو كان يقدّم في قالب الفن والدراما فإن من أهم الأسلحة لأهل الإيمان في مقارعة هذا الغزو والعدوان الاعتصام بكثرة ذكر الله عز وجل في القلب واللسان حتى يبارك الله في بقية الأعضاء والجوارح، ويعينها على المصابرة والمدافعة، حتى يفتح لها بإبطال الباطل وإحقاق الحق.

ولما علم إبليس بخطر سلاح ذكر الله عز وجل على إبطال مخططاته ومؤامراته سعى بكل قوة لتحويل ذكر الله عز وجل من سلاح فتاك ضد الباطل وأعوانه ليكون رقصاً وطبلاً وهبلاً -كما نرى في كثير من المقاطع المصورة- فانتشر كثير من الباطل وترسخ عبر هؤلاء (الذاكرين) زوراً، فأصبحوا من جند إبليس بدلاً من أن يكونوا في طليعة جند الرحمن!

ومن اللفتات المهمة في قصة هارون عليه الصلاة والسلام أهمية اللين في الدعوة إلى الله عز وجل، وهذا يتضح في موقفين بارزين هما: الحوار مع فرعون، والموقف من عبادة بني إسرائيل للعجل.

فلما أمر الله عز وجل موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام بالذهاب إلى فرعون ودعوته لعبادة الله عز وجل وتوحيده أمرهم بلين القول معه: ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ

طَغَى ۞ فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ۞ قَالاَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى ۞ قَالَ لاَ تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ۞ [طه:٤٢-٤٦].

فبرغم جبروت فرعون وطغيانه أمرَهُما الله عز وجلّ بلين القول؛ لأن هذا هو الأصل في الدعوة الربانية، ولأن الله عز وجل يرحم عباده برغم كفرهم فلا يعاجلهم بالعقوبة، ولكن هذا اللين في الخطاب هو في الأسلوب والكلمات حتى يستمع للخطيب والرسالة والدعوة، وليس اللين في المضمون وماهية الخطاب، فلا لين ولا تهاون فيهما، وقد وضّحت الآيات الأخرى حقيقة لين الخطاب كما في قوله تعالى: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ۞ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى ۞ وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ [النازعات:١٧-١٩].

وبعد أن تلطّف موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام بفرعون أكثر من مرة، وبقي فرعون على غروره وكفره وعناده، وتطاوَل وتواقح على موسى عليه الصلاة والسلام ﴿فَقَالَ لَهُ فِرْعَونُ إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا ۞ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَافِرْعَونُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء:١٠١ - ١٠٢] فلقد تجاوزه موسى عليه الصلاة والسلام وأكمل خطابه بلينٍ في الأسلوب وثباتٍ ووضوحٍ في عرض التوحيد وبيان كفره وعقابه! ومن هنا فإن عرض الدعوة الإسلامية يكون باللين في الخطاب كأصلٍ عام مع وضوحٍ وثباتٍ في عرض التوحيد والدّين إلا مع من طغى وتجبّر فإنه يجابَه بما يناسب حاله، ومن الأخطاء الحاصلة اليوم تمييع الّدين والعقيدة مِن بعض الدعاة والقادة بسبب ضغط الواقع الداخلي والخارجي لحسابات سياسية أو مكاسب حزبية، فكل هذا باطل لا يجوز بحال من الأحوال.

والموقف الثاني التي تَبيّن فيه لين هارون عليه الصلاة والسلام هو حين أنكر على بني إسرائيل عبادتهم لعجل السامري ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَاقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ [طه:٩٠]، فهارون أنكر على بني إسرائيل، لكنهم رفضوا موقفه، وكادوا أن يبطشوا به وبالأقلية التي تبعته ﴿قَالَ يَاابْنَ أُمَّ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه:٩٤].

وقد اختلف أهل العلم فيما إذا كان موقف هارون عليه الصلاة والسلام مصيباً بعدم تركه بني إسرائيل واللحاق بموسى عليه الصلاة والسلام في الطور﴿قَالَ يَاهَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴿أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ [طه:٩٢-٩٣].

فالعلامة ابن عاشور يراه خلاف الأولى وأنّ مصلحة العقيدة أولى من جمع الكلمة، والشيخ عمر الأشقر يراه موقفاً مصيباً قبِلَه موسى وأقرَّه الله عليه، والجميع متفق على أهمية الإعلان عن إنكار الباطل تجاه توحيد الله عز وجل، وهو أمر يقصّر فيه كثير من أهل الخير اليوم ويخالفون نهج الأنبياء فيه بحجج واهية!

١٤ داود عليه الصلاة والسلام

خصّ الله عز وجل بني إسرائيل بأن كان كثير من الرسل والأنبياء منهم، كما في قوله صلى الله عليه وسلم: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي» متفق عليه، ومن أمثلة كثرة الأنبياء في بني إسرائيل تواجد عدد من الأنبياء معاً في نفس الوقت (يعقوب ويوسف وموسى وهارون وداود وسليمان) وغيرهم، كما أن بعض العلماء يصحّح خبر مقتل سبعين نبياً من بني إسرائيل في يوم واحد! بل صحّح الحاكم والذهبي أثراً عن ابن عباس أن كل الأنبياء هم من بني إسرائيل إلا عشرة أنبياء!

فبعد موت هارون وموسى عليهما السلام ظهر في بني إسرائيل عدد من الأنبياء لا نعرف عددهم ولا أسماءهم، كان منهم نبيٌ طلب بنو إسرائيل منه أن يختار لهم ملكاً يقودهم ويقاتلون تحت رايته ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ [البقرة:٢٤٦]، فاختار الله لهم طالوت ملكاً ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ [البقرة:٢٤٧]، فاعترض عليه بنو إسرائيل كعادتهم في مخالفة أوامر الله عز وجل!

ولم يسمعوا ويطيعوا له إلا بعد مجادلات طويلة مع نبيهم، وحتى أرسل لهم الله عز وجل علامةً وآيةً ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ

التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلآئِكَةُ﴾ [البقرة:٢٤٨].

ورغم ذلك فإن بني إسرائيل لما طلب منهم ملكُهم طالوت التجهز للقتال والإخلاص فيه والطاعة والامتثال نكص أغلبهم ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ﴾ [البقرة:٢٤٩]، فلم ينجح من هؤلاء إلا القلة! والأعجب أن غالبية القلة نكصت مرة أخرى لما رأت جموع العدو وكثرتهم ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ [البقرة:٢٤٩]، ولم يصمد مع طالوت إلا أقلية الأقلية وهم ٣١٤ مجاهداً فقط كعدد أصحاب بدر، كما جاء في حديث البراء بن عازب عند البخاري، وكان في جيش طالوت الصغير مجاهد اسمه داود ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاء﴾[البقرة:٢٥٠-٢٥١]، فداود عليه السلام كان جندياً مجاهداً مخلصاً صادقاً شجاعاً في جيش طالوت، فاصطفاه الله عز وجل وجعله نبياً وملِكاً وخليفة ﴿يَادَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾[ص:٢٦].

وقد وصفه الله عز وجل بقوله: ﴿دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ﴾ [ص:١٧]، ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ [ص:٢٠]، وفي هذا عبرة وتذكرة بعناصر الخلافة والحكم والملك الرشيد وهي:القوة في العلم والعمل وهذا معنى (الأيد)، فقد كان داود عالماً بالشرع والدنيا، ومجاهداً في سبيل الله

وصانعاً ماهراً للدروع ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ [الأنبياء:٨٠]، ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ [سبأ:١٠].

فمَن أراد سبيل الأنبياء في إقامة الحكم فعليه بالإخلاص والطاعة التامة لله عز وجل، ومن ثم الأخذ بالأسباب العلمية والعملية الصحيحة، فعندها يقوى حكمه ويرشد عدله في الناس وتصلح سياسته لأمور الدنيا فيسعد ويسعدون ويكون له الثواب الجزيل عند الله في الآخرة.

وتكرّر في آيات قصص أنبياء بني إسرائيل أن الله عز وجل فضّلهم على العالمين في زمانهم ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة:٤٧]، وقد اعتبر اليهود أن هذا التفضيل هو تفضيل دائم لصيق بهم بسبب جنسهم، وخاص بهم، بينما القرآن الكريم يوضح في آيات كثيرة أنه تفضيل زمني يخص الفترة الذي كان فيها بنو إسرائيل هم أفضل الأمم، من حيث إيمانهم بالله عز وجل برغم كثرة عصيانهم وجرائمهم، وأنه ليس تفضيلاً دائماً لجنسهم، ويظهر هذا في قصة داود في القرآن الكريم.

فداود عليه السلام أُنزل عليه الزبور ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [النساء:١٦٣]، ومما نزل في الزبور ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاَغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٥-١٠٦]، فالأرض لله عز وجل وهو يملّكها الصالحين من عباده في كل زمان، وهذه قاعدة إلهية ذكرها عدد من الأنبياء من بني إسرائيل، كقول موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ لِلهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف:١٢٨].

فموسى وداود عليهما السلام يؤكدان أن وعد الله عز وجل بالتأييد والنصر والاستخلاف في الأرض يكون لأهل الصلاح من عباد الله المتقين، ولما حاد بنو إسرائيل عن تقوى الله بكفرهم بعيسى عليه السلام فقدوا التفضيل على بقية الأمم في زمانهم وحتى قيام الساعة.

ولنا معشر المسلمين عبرة في بني إسرائيل، حيث فضَّلنا اللهُ على الأمم ما استقمنا على تقوى الله تعالى وقمنا بنُصرة دينه كما في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ﴾ [آل عمران:١١٠] فإذا حققنا الشرط من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حقق الله عز وجل لنا الفضل والنصر.

ومن مواطن العبرة في قصة داود عليه الصلاة والسلام عدم التعجل في الحكم والأمور قبل استيفاء كل الإجراءات الضرورية.

ففي قصة الخصمين الذين دخلا على داود خِلسة ليحكم بينهما في رجل له ٩٩ نعجة طلب من أخيه نعجته الوحيدة، تعجّل داود عليه السلام ولم يسأل الطرف المشتكى عليه عن تبريره: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاء لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَاب﴾ [ص:٢٤]، فبرغم أن وصف داود عليه الصلاة والسلام لبغي الشركاء صحيح لكن كان الأولى به والأكمل أن يستمع للطرف الثاني، ولذلك سرعان ما تنبّه وتيقظ واستغفر وتاب وأناب وسجد لله عز وجل.

وهكذا هم أتباع الأنبياء يحرصون على الكمال واتّباع الأولى في الإجراءات للحكم بين الناس، وإذا تبيّن لهم خطؤهم يعترفوا به ولا يستكبرون، ويتوبون منه ويصححونه، وكم نحتاج إلى الارتقاء لنهج الأنبياء في هذا الزمان الذي يبغي فيه كثير من الشركاء والدول والجماعات الإسلامية على بعضهم البعض بغير حق، والله المستعان.

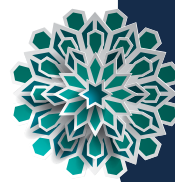

١٥ سليمان عليه الصلاة والسلام

من المعلوم أن سليمان عليه الصلاة والسلام ورث عن أبيه داود عليه السلام النبوّة والملك؛ ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ [النمل:١٦]، ثم خصّه الله عز وجل بأن أجاب دعاءه وجعل له مُلْكاً لا ينبغي لأحد من بعده ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص:٣٥].

وفي قصة سليمان عليه السلام كثير من العِبر نقف مع بعضها على وجه الإيجاز، فمنها نسيانه قول: « ما شاء الله» حين عزم على الطواف على نسائه من أجل أن ينجبن فرسان مجاهدين، فروى البخاري ومسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «قال سليمان بن داود عليه السلام: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة، كلهن تأتي بفارس، يجاهد في سبيل الله. فقال له صاحبه: قلْ إن شاء الله! فلم يقل إن شاء الله! ولم تحمل شيئاً إلا واحداً، ساقطاً أحد شقيه. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لو قالها لجاهدوا في سبيل الله»، وهذه هي قصة قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص:٣٤]، فالأنبياء يتعرضون للفتنة والاختبار من الله عز وجل وكذلك الصالحون لقوله صلى الله عليه وسلم حين سئل:أيّ الناس أشد بلاءً؟ فقال: «الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل» صحّحه الألباني.

ومِن العِبر المهمة هنا أنه على أتْباع الأنبياء أن يعرفوا أن طريق الأنبياء فيه ابتلاءات وفتن، وأن النجاة منها تكون بانتهاج نهج الأنبياء بالتزام الحق

أولاً، والتوبة والإنابة ثانياً، كما في قصة سليمان عليه الصلاة والسلام هنا ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾، ومن قبل في قصة أبيه داود عليه الصلاة والسلام ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص:٢٤]، ففي هذه المرحلة الحساسة من تاريخ الإسلام لا بد لنا من الاستعداد والتيقظ لكثرة الفتن والابتلاءات، والاعتصام بالله عز وجل والأخذ بالأسباب الشرعية والواقعية.

ومن العِبر الكبرى في هذه الفتنة إبطال قول الرافضة بعصمة الأنبياء والأئمة المطلقة، فها هو سليمان عليه الصلاة والسلام نسي قول: «إن شاء الله» برغم أن صاحبه قد ذكّره بها! وقيل: إن ذلك وقع أيضاً لنبينا صلى الله عليه وسلم حين سأله مشركو قريش عن أصحاب الكهف وذي القرنين والروح، فقال لهم: أجيبكم غداً، ونسي أن يقول: «إن شاء الله»، فتأخر الوحي عنه مدة أسبوعين ثم نزل قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾ إِلاَّ أَن يَشَاء اللَّهُ﴾ [الكهف:٢٣-٢٤]، وفي هذا بيان لبشرية الأنبياء، وأن عصمتهم هي في تبليغ الرسالة الإلهية، فإذا كان الأنبياء يقع منهم النسيان أو الخطأ كقتل موسى عليه الصلاة والسلام للقبطي فكيف تصحّ مزاعم أفّاقي الرافضة وقصصهم الخيالية عن عصمة الأئمة من الخطأ والسهو والنسيان، فهل هم أفضل من الأنبياء؟ أم أن هذه الآيات القرآنية خاطئة؟ وكلا وجهي الأمر ذميم.

ومن العِبر المهمة في قصة سليمان عليه السلام تفنيد مزاعم اليهود بأنه بنى في بيت المقدس هيكلاً! ولذلك فشل اليهود -ولليوم- في العثور على أي دليل أثري يشير لهذا الهيكل المزعوم برغم كثرة أبحاثهم الآثارية في القدس عموماً، وتحت المسجد الأقصى خصوصاً.

إذ إن سليمان عليه السلام إنما جدّد في بيت المقدس بناء المسجد الأقصى لما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله

عليه وسلم أنه قال: «إن سليمان بن داود عليهما السلام لمّا بنى بيت المقدس، سأل الله عز وجل خلالاً ثلاثة: سأل الله عز وجل حُكماً يصادف حكمه، فأُوتيه. وسأل الله عز وجل ملكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعده، فأوتيه. وسأل الله عز وجل حين فرغ من بناء المسجد أن لا يأتيه أحدٌ لا ينهزه إلا الصلاة فيه، أن يخرج من خطيئته كيوم ولدته أمه، فأوتيه» رواه أحمد والنسائي وصحّحه الألباني، وهذا يبطل علاقة يهود اليوم بالقدس، فسليمان عليه الصلاة والسلام كان مسلماً يدعو للإسلام كما في قصته مع ملكة سبأ ﴿أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل:٣١].

ومن فضل الله عز وجل على سليمان عليه الصلاة والسلام أنه علّمه منطق الطير والحيوان: ﴿وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾ [النمل:١٦] ولذلك أيضا فهم كلام النملة لبني جنسها، وفي هذا إشارة قوية لضلال الرؤية العِلمانية المادية والإلحادية التي تنكر وجود الله عز وجل، أو الزعم بأن الوجود ليس له حقيقة أو غاية، بل إن هذا الكون جميعه مخلوق من الله عز وجل، وجميع مَن فيه يسبح ويعبد الله عز وجل رغباً ورهباً، علِم ذلك مَن عَلِمه وجهله مَن جهله، ولذلك كان من خصائص سليمان وداود عليهما السلام إدراك تسبيح الكائنات لله عز وجل ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء:٧٩]، وكلما تقدم العلم كشف عن تناغم الكائنات مع عبادة الله عز وجل.

ولو بقينا مع الطير وتسخيره لسليمان عليه الصلاة والسلام سنجد أن جيش سليمان -على ضخامته وتنوع مكوناته- ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ﴾ [النمل:١٧] إلا أن له نظاما إداريا دقيقا بحيث يمكن لسليمان عليه الصلاة والسلام ملاحظة طائر متغيب! ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ﴾ [النمل:٢٠]، وأيضاً كان يتابع الأمور

والقضايا، فلما جاء الهدهد وقدّم عذره لم يقبل منه ذلك إلا بعد التثبت ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [النمل:٢٧]، ونحن اليوم نعيش عصر الإدارة، فيلزمنا إتقانها حتى نكون روادًا للبشرية كما كنا، والإدارة منهج نبوي عميق، فقد ثبت في البخاري ومسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم طلب إحصاء عدد من يلفظ بالإسلام، وفي غزوة بدر استنتج النبي صلى الله عليه وسلم عدد المشركين من معرفة عدد ذبائحهم.

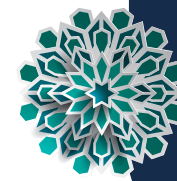

١٦ أيوب عليه الصلاة والسلام

تُشكل قصة أيوب عليه السلام نموذجاً واضحاً للتفاوت بين نظرة تقدير الأنبياء واحترامهم في القرآن الكريم مقارنةً مع ما ورد في التوارة المحرفة من انتقاص وازدراء لكثير من الأنبياء، حتى أنبياء بني إسرائيل أنفسهم! فقد صور مؤلفو «سفر أيوب» شخصية أيوب عليه الصلاة والسلام بأنه رجل يائس محبط كاره للحياة معترض على ربه، ويكلّمه بطريقة غير لائقة، وهذا كله باطل لا يليق بالأنبياء، بينما القرآن الكريم يقدم شخصية أيوب عليه الصلاة والسلام بكونه من المحسنين كبقية إخوانه من الأنبياء، قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأنعام:٨٤]، ونفى القرآنُ الكريم أكاذيب اليهود عن جزع أيوب عليه الصلاة والسلام، فقال سبحانه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:٤٤]. وللأسف فإن كثيراً من الإسرائيليات، والتي فيها انتقاص للأنبياء، قد تسرّبت إلى كتب التفسير والتاريخ، وأصبحت جزءاً من الثقافة الشعبية التي ترغب بسماع التفاصيل الغريبة ولو مسّت جناب الأنبياء؛ بسبب شيوع الجهل وضعف توقير الأنبياء في القلوب التي هجرت القرآن الكريم تدبراً وفهماً.

القرآن الكريم لا يفرد مساحة كبيرة لتفاصيل قصة أيوب عليه الصلاة والسلام، ويكتفي بذكر معالم عامة من قصة ابتلائه وصبره ولجوئه لله عز وجل، واستجابة الله عز وجل له وشفائه وإكرامه، ومن العِبر البارزة في قصة

أيوب عليه الصلاة والسلام اللفتة الربانية في إعانته عليه الصلاة والسلام بالبر بيمينه ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلاَ تَحْنَثْ﴾ [ص:٤٤]، ولا يهمنا ولا ينفعنا معرفة شخصية الذي حلف أيوب عليه الصلاة والسلام أن يضربه!

ولماذا حلف أن يضربه! فقد تجاوز القرآن الكريم عن ذلك، وإن اهتم بذكر المَخرج للبر باليمين؛ لأن الأنبياء لا يليق بهم نقض الأيمان، ولكن أيضاً يقدم لنا القرآن الكريم دائرة واسعة للحلول المحققة التي تحقق المصلحة كاملة، وهذا الحل القرآني يحقق تعظيم القسم بالله عز وجل والبر به من جهة، ويحقق من جهة أخرى مصلحة الحفاظ على الود والعلاقة فلا تتضرر بهذا الضرب، فقد أمره ربه أن يضرب بضغثٍ، وهو الحشيش أو الفروع الصغيرة للشجرة بما لا يضر ولا يؤذي.

ومما نستفيده من هذه القصة البحث عن الحلول والمخارج (خارج الصندوق) كما يقولون في علم الإدارة.

وفي قصص الأنبياء أمثلة كثيرة لحل المشاكل بطرق إبداعية غير مألوفة، ولعل من أبرز هذه الأمثلة الحل النبوي العبقري لأزمة وضع الحجر الأسود في مكانه حين أعادت قريش بناء الكعبة واختلفت حول مَن يضع الحجر الأسود في مكانه، حتى حلّها النبي صلى الله عليه وسلم

بأن بسط رداءه ووضع عليه الحجر ورفعه جميع ممثلي قريش معاً، ثم وضعه النبي صلى الله عليه وسلم بيده في مكانه.

وتدور غالب قصة أيوب عليه الصلاة والسلام في القرآن الكريم على ما تعرض له من ابتلاء وامتحان قابله بالصبر والرضا والمزيد من العبودية لله عز وجل ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ۞ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۞ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَى لأُوْلِي الأَلْبَابِ ۞

وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلاَ تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّاب﴾ [ص:٤١-٤٤].

وقضية ابتلاء وامتحان البشر هي سنة الله عز وجل فيهم ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُون﴾ [الأنبياء:٣٥]، ولذلك كان أكثر الناس ابتلاءً هم الأنبياء ثم الصالحون، لقوله صلى الله عليه وسلم لما سأله سعد بن أبي وقاص: أي الناس أشد بلاءً؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، فيبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلباً اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة» صححه الألباني.

وفي قصة أيوب عليه الصلاة والسلام عَرض لمنهج الأنبياء في التعامل مع الابتلاء والشر، فهو أولاً يتأدب مع ربه فينسب الشر والنصب والعذاب للشيطان.

فهو يعلم أن الله عز وجل هو خالق الكل الخير والشر ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَق﴾ [الفلق:٢]، وهو سبحانه الذي قدّر أن يبتلي أيوب عليه الصلاة والسلام ويقع عليه الضر بواسطة الشيطان ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللّه﴾ [النساء:٧٨].

وثانياً أيوب عليه الصلاة والسلام يعرف أن هذا ابتلاء من ربه وأن فيه خيراً له، وأن كشف هذا الابتلاء يكون بمزيد من التذلل والعبودية لربه سبحانه وتعالى ولذلك ﴿نَادَى رَبَّهُ﴾ ودعاه، فاستجاب له ربه فكشف ضره ومدحه وأثنى عليه بوصفه ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّاب﴾.

وثالثاً كان هذا الموقف الصابر والراضي من أيوب عليه الصلاة والسلام على بلائه؛ لأنه يعرف ويؤمن بأن هذه الحياة الدنيا ليست نهاية المطاف، بل هناك حياة أخرى في الآخرة تعوّضه وتكافئه بأضعاف ما لاقاه من نصب وعذاب.

وفي واقعنا المعاصر ومع العولمة التي تجتاح أرجاء الأرض وتفرض مفاهيم الحداثة الغربية على الناس، فإن فئات من شباب المسلمين وقعوا في فخ (مشكلة الشر) وتسببت لهم بالوقوع في متاهة الإلحاد والكفر بالله عز وجل. و(مشكلة الشر) هي مشكلة علمانية غربية ناتجة عن إنكار عالم الغيب والاقتصار على عالم المادة والمغالاة في ذلك حتى وصلت إلى نفي وجود الحقيقة!

وترتب على ذلك نفي وجود معنى وغاية للحياة! وأصبح الجري وراء اللذة والسعادة هو البوصلة، وعند ذلك لم يعد للابتلاء والامتحان دور وفائدة!

بينما الواقع يصادم هذه المفاهيم العلمانية الباطلة، فمِن سمّ الحيات يستخرج الدواء، ومن ألم الولادة تخرج بسمة المواليد للحياة، ومن الأنهار الجارية تخرج الفيضانات، فليس كل ابتلاء شراً، ولا كل جمال خيراً! ولولا المشقة والابتلاء ما نبغ النوابغ وتطورت حركة الحياة ولا عرفت البشرية القدوات التي تنير لها الطريق.

وحياتنا الدنيا ليست نهاية المطاف بل هناك حياة أخروية يثاب فيها أهل الخير والصلاح ويعوّضون فيها على ما لاقوه من مشاق ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان:١٢]، فمَن لزم منهج الأنبياء نجا من قلق واكتئاب العصر الحاضر ونَعِم بجنات الخلد في المستقبل.

١٧ يونس عليه الصلاة والسلام

في قصة يونس، عليه الصلاة والسلام، عدد من العِبر المهمة بالرغم من قصرها، وقصة يونس عليه الصلاة والسلام تعرضت للتحريف عند كتبة التوارة من اليهود فجعلوا منه نبياً عنصرياً يرفض دعوة أهل نينوى الأشوريين! بينما القرآن الكريم والسنة النبوية لا يذكران إن كان أهل نينوى أشوريين أو مِن بني إسرائيل، إلا أنهما ينصّان على أنّ يونس نبي من ذرية إبراهم عليه السلام ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ۞ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ۞ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:٨٤-٨٦]، وجاء ذكر يونس عليه الصلاة والسلام في حديث النبي صلى الله عليه وسلم مع عداس في الطائف، حين قال له عداس: أنا نصراني وأنا رجل من أهل نينوى. فقال له رسول الله: «مِن بلد الرجل الصالح يونس بن متّى»، وقد كانت نينوى بلدة كبيرة وسكانها خلْق كثير ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُون﴾ [الصافات:١٤٧]، وهذا فيه إشارة إلى أن جزيرة العرب وما حولها هي محل بعثة الأنبياء، ويعضد ذلك أنه قد ثبت في صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر أن موسى ويونس عليهما الصلاة والسلام قد جاءا إلى مكة حاجّين ملبيّين.

ومن العِبر المهمة في قصة يونس عليه الصلاة والسلام تدبر عظم قدرة الله عز وجل وحكمته البالغة في تسيير الأمور ورحمته الواسعة في تدبير أمور العباد

ولطفه البالغ بتوصيل المنافع ودفع المضار بما لا يخطر على قلب ولا يتوقعه عقل، فهذا يونس عليه الصلاة والسلام يدعو قومه لعبادة الرحمن وحده لكنهم يرفضون ويصرّون على كفرهم حتى أمَر الله عز وجل بعقابهم وإهلاكهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُون﴾ وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيم﴾ فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِين﴾ [يونس:٩٧-٩٨].

فقوم يونس استحقوا العذاب بكفرهم وعنادهم، ولما أخبرهم نبيهم يونس بأن العذاب سيأتيهم بعد ثلاثة أيام جادلوه ولم يرتدعوا وغاضبوه ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا﴾ [الأنبياء:٨٧]، فقد ذهب يونس عليه الصلاة والسلام منزعجاً من عدم قبولهم للتوحيد والحق، لكنه ذهب قبل أن يؤمر بالذهاب والمغادرة بخلاف ما حصل مع لوط عليه الصلاة والسلام ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ [هود:٨١] وهذا الفعل خلاف الأولى، ولذلك استحق اللوم ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيم﴾ [الصافات:١٤٢]،وتبدّت قدرة الله عز وجل فلم يتركه ربه لأمواج البحر الهائج تغرقه، وجهز له حوتاً ينتظره! ولكنه أيضاً لم يقطعه بأسنانه!

وبرزت هنا حكمة الله عز وجل الذي ألْهم عبده يونس التسبيح والدعاء والتضرع، والذي كان نهجاً له من قبل في الرخاء﴿فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُسَبِّحِين﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُون﴾ [الصافات:١٤٣-١٤٤]، وعندها تنزلت رحمة الله سبحانه وتعالى عليه: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِين﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ [الأنبياء:٨٧-٨٨]، فأنجاه ربه من ظلمات الغم وظلمات بطن الحوت وظلمات عمق البحر، ثم تكاملت رحمة ربه عليه ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ

رَبِّكَ وَلاَ تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ لَوْلاَ أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاء وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ [القلم:٤٨-٤٩]، وجاء لطف الله جل وعلا بيونس المكظوم والمكروب ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاء وَهُوَ سَقِيمٌ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ [الصافات:١٤٥-١٤٦] حيث ظللت عليه بأوراقها من الشمس والحشرات وعالجت جراحه بما فيها من دواء، وكانت ثمرتها -اليقطين- شراباً وطعاماً له دون مشقة وعناء منه. وبهذا تتبدى العبرة بضرورة الصبر على حكم الله عز وجل أولاً، وأن الرجوع لله عز وجل والتوبة والإنابة والاستغفار هي منهج الأنبياء ثانياً، وأن أقدار الله عز وجل ورحمته ولطفه بعباده الصالحين فوق كل خيال وتصور ثالثاً.

و من العِبر والدروس المهمة في قصة يونس عليه الصلاة والسلام أن الهداية والتوبة بابها مفتوح ولكل الناس، ولا يعلم أحد متى تأتي أو من يستفيد منها، وأن على المؤمنين الصبر على الدعوة دوماً وعدم اشتراط تحقق النتائج أمامهم فوراً ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ [القلم:٤٨].

ففي قصة يونس عليه الصلاة والسلام أنه ذهب غاضباً من قومه بعد أن أصروا على كفرهم وعنادهم برغم أنه توعدهم بالعذاب من الله عز وجل بعد ثلاثة أيام، فقد ورد عن عبد الله بن مسعود بسندٍ صحيح أنه قال: «إن يونس عليه الصلاة والسلام كان وعد قومه العذاب وأخبرهم أنه يأتيهم إلى ثلاثة أيام»، كما حدث من قبل مع قوم ثمود حين عقروا الناقة ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود:٦٥]، فلما لم يستجب قوم يونس له ذهب غاضباً دون إذن من ربه، أما قومه فقد تشاوروا بعد ذلك وقرروا أن يونس عليه السلام صادق فإن غادرنا فالعذاب نازل لا محالة، فلما تفقدوا يونس عليه الصلاة والسلام وكان قد ذهب سراً كما يفعل العبد الهارب من سيده: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى

الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [الصافات:١٣٩-١٤٠]، عندها أدرك قومُ يونس أن عذاب الله واقع بهم لا محالة، فقرروا التوبة والانصياع لله عز وجل، ويكمل ابن مسعود قصة قوم يونس عليه الصلاة والسلام فيقول: « ففرقوا بين كل والدة وولدها، ثم خرجوا، فجأروا إلى الله واستغفروه، فكفّ الله عنهم العذاب».

فالقوم تابوا في غياب يونس عليه الصلاة والسلام الذي كان قد ركب في السفينة وهاج البحر فيها، ثم اقترعوا بمن يُرمى من السفينة، ووقعت عليه القرعة، ورمي في البحر لكن الحوت التقمه، ثم دعا ربه فاستجاب له وأمر الحوت بأن يلقيه على البر وأنبت عليه شجرة يقطين، ومن ثم عاد لقومه مرة ثانية لكنهم كانوا مؤمنين في هذه المرة.

فالهداية غيبٌ لا يعلمه إلا الله عز وجل، ولذلك كان يونس عليه الصلاة والسلام مُلاماً عندما ظن أن أمر قومه انتهى وأن العذاب سيهلكهم، لكن الأمور جرت على غير ظنه، فقد أدرك القوم أنفسهم وتابوا لربهم فتاب عليهم، ولذلك علينا أخذ العبرة بعدم تحجير الهداية والتوبة ومنعها عن الناس، فنحن لا ندري ماذا سيحدث في الغيب وما هو مستقبل الخلق.

وما أجمل الإشارة والربط بين قصة يونس عليه الصلاة والسلام والتي تُقرر أن باب الهداية مفتوح وكل الاحتمالات قائمة وبين قصة النبي صلى الله عليه وسلم مع أهل الطائف الذين آذوه وضربوه ورفضوا دعوته وهي الحادثة التي لقي فيها عنّاس والذي هو من أحفاد قوم يونس عليه الصلاة والسلام، فحين جاءه جبريل ومعه مَلَكُ الجبالعليهما الصلاة والسلام وعرض عليه أن يهلك أهل الطائف اتسع أفق رحمة النبي صلى الله عليه وسلم بهم وقال قولته الخالدة: «بل أرجو أن يُخرج اللهُ من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا» رواه البخاري.

١٨ إدريس عليه الصلاة والسلام

تكاد تكون قصة إدريس وعدد من الأنبياء الآخرين في القرآن الكريم قصصاً محدودة جداً ومختصرة ولا تزيد أحياناً عن الإخبار بوجود هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولذلك لجأ بعض السابقين والمعاصرين ممّن كتب في قصص الأنبياء للتعويل كثيراً على الإسرائيليات لتكثير الكلام عن حياة هؤلاء الأنبياء، وفي هذا خطر كبير؛ لأنه قد يحتوي على كذب وباطل لا يليق بالأنبياء.

وردَ إسم إدريس عليه الصلاة والسلام في عدة آيات قرآنية، ووصفته بأنه نبي صالح صابر صدّيق وله مكانة علية، قال تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنبياء:٨٥-٨٦]، ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم:٥٦-٥٧].

وفي السُّنة النبوية جاء ذكر إدريس عليه الصلاة والسلام في حديث الإسراء والمعراج المتفق عليه، حيث قابله النبي صلى الله عليه وسلم في السماء الرابعة: «ثم صعد بي حتى أتى السماء الرابعة، فاستفتح. فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومَن معك؟ قال: محمد صلى الله عليه وسلم. قيل: أوَ قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، فنعم المجيء جاء، ففتح فلما خلصت فإذا إدريس. قال: هذا إدريس، فسلّم عليه. فسلّمت عليه، فرد، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح».

هذا ما ثبت في شرعنا من أخبار إدريس عليه الصلاة والسلام، بينما نجد

أن قصة إدريس عليه الصلاة والسلام ترد عند الأمم السابقة من الصابئة واليهود والنصارى وحتى عند اليونان والمصريين من عبدة الأوثان والفلسفة، لكنها مخلوطة بالكذب والتحريف، فيزعم اليهود والنصارى أن إدريس عليه الصلاة والسلام هو «أخنوخ» الوارد اسمه في التوراة! وعنهم أخذ علماء التاريخ المسلمون ذلك، أما الصابئة فيجعلون إدريس عليه الصلاة والسلام نبياً من أنبيائهم يدعى (هرمس) وأنه هو الذي علّمهم الفلسفة والتنجيم! ويَذكر بعض الباحثين أن إدريس عليه الصلاة والسلام عند قدماء المصريين هو الإله أوزيريس!! وهذا كله باطل لا يصح بنص القرآن الكريم الذي أخبرنا عن حقيقة إدريس فقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾، فوصفه بالصديقية، التي هي كمال الامتثال للأمر الرباني، ووصفه بالنبوة، وهي كمال العبودية لله عز وجل، فكيف يزعمون بعد هذا أنه مؤسس الفلسفة والتنجيم، أو أنه إله من دون الله، وكل هذا من ضلالات الشياطين وأهواء المنحرفين.

وفي إبطال نسبة التنجيم لإدريس عليه الصلاة والسلام يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأما قول القائل: إنها صنعة إدريس. فيقال: أولاً هذا قول بلا علم؛ فإن مثل هذا لا يعلم إلا بالنقل الصحيح، ولا سبيل لهذا القائل إلى ذلك. ولكن في كتب هؤلاء «هرمس الهرامسة» ويزعمون أنه هو إدريس. «والهرمس» عندهم اسم جنس، ولهذا يقولون: «هرمس الهرامسة» وهذا القدر الذي يذكرونه عن هرمسهم يعلم المؤمن قطعاً أنه ليس هو مأخوذاً عن نبي من الأنبياء على وجهه، لما فيه من الكذب والباطل. ويقال ثانياً: هذا إن كان أصله مأخوذاً عن إدريس فإنه كان معجزة له وعلماً أعطاه الله إياه فيكون من العلوم النبوية».

ولكون إدريس عليه الصلاة والسلام ﴿صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ قد أثابه ربه ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ وهي علو المكانة لليوم حيث خلد اسمه في العالمين.

١٩ ذو الكفل عليه الصلاة والسلام

٢٠ إلياس عليه الصلاة والسلام

٢١ اليسع عليه الصلاة والسلام

٢٢ شيث عليه الصلاة والسلام

٢٣ يوشع عليه الصلاة والسلام

إن ذا الكفل وإلياس واليسع عليهم الصلاة والسلام هم ممن وردت أسماؤهم في القرآن الكريم بأنهم من الأنبياء، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ۞ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنبياء:٨٥-٨٦]، وقوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ۞ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:٨٥-٨٦]، ونصت آية الصافات على كون إلياس من الرسل ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات:١٢٣]، ويرى عدد من المفسرين في قوله تعالى: ﴿سَلاَمٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ﴾ [الصافات:١٣٠] أن المقصود به هو إلياس وأن (إل ياسين) هي لغة ثانية لإلياس على غرار جبريل وجبرائيل وجبرائين، وميكال وميكائيل، وإسماعيل وإسماعين.

وأما شيث ويوشع عليهما الصلاة والسلام؛ فقد ثبتت نبوّتهما في السنة النبوية، فبخصوص شيث عليه الصلاة والسلام أخرج ابن حبان بسندٍ حسن عن أبي ذر أنه قال: «إنه أنزل عليه خمسون صحيفة» وهذا حديث مرفوع للنبي صلى الله عليه وسلم، لا يقوله الصحابي من ذاته.

وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن أحد أنبياء بني إسرائيل حُبست له الشمس في إحدى الغزوات فقال عليه الصلاة والسلام: «غزا نبي من الأنبياء ... فغزا فدنا من القرية صلاة العصر أو قريباً من ذلك، فقال للشمس: أنتِ مأمورة وأنا مأمور، اللهم احبسها علينا، فحُبست حتى فَتح الله عليه..» رواه البخاري.

وفي رواية صحيحة في مسند أحمد جاء التصريح باسم النبي المقصود، فعن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الشمس لم تُحبس على بشر إلا ليوشع ليالي سار إلى بيت المقدس».

ولم يَذكر القرآن الكريم والسنة النبوية الكثير من الأخبار عن قصص هؤلاء الأنبياء، ولذلك يجب الحذر من تداول الإسرائيليات حولهم.ومعلوم أن عدد الأنبياء والرسل كثير جداً، لقوله تعالى: ﴿وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء:١٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خلاَ فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤]، وقدّمت لنا السُنة النبوية أرقاماً محددة، فأبو ذر سأل النَّبي صلى الله عليه وسلم عن عدد المرسلين، فقال عليه الصلاة والسلام: «جمٌّ غفير، ثلاث مائة وبضعة عشر»، وسأله عن عدد الأنبياء، فقال عليه الصلاة والسلام: «مئة وأربعة وعشرون ألف نبي» رواه أحمد وصححه الألباني لغيره.

وفيما يتعلقُ بلِماذا قصّ الله عز وجل قصص هؤلاء الأنبياء والرسل دون بقيتهم؟ يقول ابن عاشور في تفسيره التحوير والتنوير:«لأن المذكورين هم أعظم الرسل والأنبياء قصصا ذات عبر».

ولعل من العبر المهمة في قصص هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام -برغم أننا لا نعرف تفاصيل حياتهم ومسيرتهم-، أن الله عز وجل قد خلّد

ذكـرهم: ﴿وَتَرَكْنَـا عَلَيْـهِ فِي الآخِرِيـن۞ سَـلاَمٌ عَلَى إِلْ يَاسِـين﴾ [الصافات: ١٢٩-١٣٠] فجعـل التصديـق بهـم وحبهـم وتقـديرهم مـن أركان الإيمـان، لِمـا لهـم مـن الفضـل، ومـا قدمـوه في سـبيل الله عـز وجـل عنـد أمـة الإسـلام حـتى قيـام السـاعة، وفي يـوم القيامـة يشهـد المسـلمون للأنبيـاء أنهـم بلغـوا الرسـالة وأدوا الأمانـة لأممهـم.

٢٤ زكريا عليه الصلاة والسلام

ثبتت نبوة زكريا عليه الصلاة والسلام بالقرآن الكريم، وهو من أواخر أنبياء بني إسرائيل، هو وابنه يحيى، وعيسى، عليهم الصلاة والسلام، وزوجة زكريا هي خالة عيسى، قال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنعام:٨٥].

كان زكريا عليه الصلاة والسلام من أنبياء بني إسرائيل، وكان متزوجاً من أخت مريم بنت عمران التي كفّله الله عز وجل برعايتها عندما كانت فتاة صغيرة لتنفيذ نذر أمها ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران:٣٥-٣٧].

ولم يكن لزكريا عليه الصلاة والسلام ذرية لأن زوجته كانت عاقراً لا تلد، فلما رأى إحسان الله عز وجل لمريم برزقها فاكهة الصيف في الشتاء والعكس.

هناك رغب زكريا عليه الصلاة والسلام بأن يطلب الولد من ربه على

وجه الإعجاز بعد أن انقطع الأمل من الإنجاب بالحالة الطبيعية لكونه كبر في السن وضعف بدنه ولكون زوجته عاقراً، وقد كان زكريا عليه الصلاة والسلام كثير الدعاء لربه من قبل، والذي كان يستجيب له ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران:٣٨] وقال تعالى عن دعاء زكريا ربه: ﴿كهيعص﴾ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاء خَفِيًّا﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم:١-٤].

أما الغاية من طلب الولد والذرية فهي أن يحمل من بعده وراثة النبوة والدّين ورعاية بني إسرائيل خوفاً من تقصير قادتهم، والذين تكرر منهم العصيان والكفر وقتل الأنبياء ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم:٥-٦]، وليست الوراثة هنا وراثة المال والثروة، فزكريا عليه الصلاة والسلام كان نجاراً كما في صحيح مسلم، وأخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم أن الأنبياء لا يورثون «ما تركناه صدقة» متفق عليه، ولذلك جعل الوراثة وراثة آل يعقوب، وبين زكريا وآل يعقوب مئات السنين.

ومن أهم العبر في قصة زكريا عليه الصلاة والسلام حرص الأنبياء على استمرار حالة الإصلاح في الأجيال القادمة والمستقبل، ولذلك طلب أن يرزقه الله ولدا صالحاً، وعلى شباب الإسلام اليوم الاهتمام بالتخطيط للمستقبل، والحرص على دوام الإصلاح وعدم ضياع الجهود التي قامت في نشر التوحيد والسُنة، وأن الدعاء الخالص لله عز وجل ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاء خَفِيًّا﴾ هو من الأسباب الشرعية ولا يتعارض مع الأخذ بالأسباب الدنيوية، وأن أتباع الأنبياء يجمعون السبب الشرعي والسبب الدنيوي في نصرة دين الله عز

وجل، وأن الدعاء الخالص لله عز وجل يمكن له أن يعطل السنن الكونية في كرامةٍ للمؤمنين.

وإن أتباع الأنبياء يحذرون من دعاء غير الله عز وجل كما يفعل كثير من جهلة المسلمين فيطلبون الولد والرزق والشفاء من الأموات والقبور، وهو خلاف شرع الله وسنة الأنبياء جميعاً.

ومن العبر البارزة في قصة زكريا عليه الصلاة والسلام أهمية ذكر الله عز وجل لأتباع الأنبياء، فإنه لما بُشّر بالولد طلب من ربه أن يعطيه آية / معجزة تمهد لمعجزة ولادة ابنه ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾ [آل عمران:٤١]، فكان زكريا عليه السلام يعجز عن الحديث العادي مع كثرة ذكره ربه في هذه الأيام الثلاثة.

٢٥ يحيى عليه الصلاة والسلام

يحيى عليه الصلاة والسلام هو ابن زكريا عليه الصلاة والسلام، وكان ميلاده آية ومعجزة بعد أن كبر وشاب زكريا عليه الصلاة والسلام، وكانت امرأته عاقراً لا تنجب، ولكن بدعاء زكريا المخلص لله عز وجل ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ [الأنبياء:٨٩-٩٠].

وتكرم الله عز وجل على زكريا ويحيى عليهما السلام فسمّى يحيى باسم لم يُسبق إليه بشر﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلاَمٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم:٧]، وأخبر ربنا سبحانه وتعالى زكريا ببعض صفات يحيى عليهما الصلاة والسلام بقوله: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلآئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران:٣٩]، فيحيى عليه الصلاة والسلام مصدق بكلمة الله عز وجل، سواء كانت النبوة والوحي الذي يأتيه هو أو بعيسى عليه الصلاة والسلام، وهو سيد شريف في قومه بنبوته، وبنبوته لزكريا عليه الصلاة والسلام، وبعلمه وأخلاقه، وهو حصور عفيف عن الشهوات والفواحش بإكرام الله له وتحصينه أو بصيانته لنفسه عن ذلك، وهو نبي صالح.

ولما وُلد يحيى وأصبح صبياً مميزاً كان متميزاً عن أقرانه بشهادة ربه عز وجل: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ وَحَنَانًا

مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم:١٢-١٤]، فبرغم صغر سنه إلا أن الله عز وجل نوّه بذكره وفضله وأمره بالأخذ بالكتاب، أي تعلم التوراة بجد وحرص، والعمل بما فيها وعبادة ربه، وآتاه ربه الفهم والحكمة مبكراً بسبب جدّه واجتهاده.

وهنا موطن العبرة لشباب العصر بالاقتداء بيحيى في الحرص على الجد والاجتهاد بالتمسك بالقرآن الكريم وتعلّم أحكامه وآدابه والعمل بما جاء به من الأوامر والنواهي، وكلما طالت صحبة الشاب مع القرآن الكريم وتعلماً وتدبراً وفهماً وعملاً آتاه الله من الحكمة والنور.

وفي أمر الله عز وجل ليحيى بالتمسك بالتوارة على قول جمهور المفسرين إشكال مع الشائع من أن تحريف التوراة وقع في السبي البابلي لليهود قبل المسيح بمئات السنين!

فهل حُرفت التوراة بعد موسى عليه الصلاة والسلام، والأنبياء في بني إسرائيل متعاقبون بكثرة؟ أم أن التحريف للتوراة حصل واتبعها الضالون من بنى إسرائيل ولكن كان الأنبياء كيحيى عندهم نسخة سليمة منها؟ أو أن التحريف وقع بعد انقطاع أنبياء بني إسرائيل برفع المسيح عليه الصلاة والسلام للسماء؟

وهناك الكثير من الحكايات الإسرائيلية عن كيفية وفاة زكريا ويحيى عليهما السلام، ولكن ليس لدينا خبر صحيح عن ذلك في القرآن الكريم أو السنة النبوية.

وهذه القصص الإسرائيلية إن ثبتت فهي تؤكد ضلال اليهود وعدوانهم الدائم على الأنبياء، وإن كانت كذبا وافتراءات فهي أيضاً تثبت تحريف الإنجيل!

٢٦ عيسى عليه الصلاة والسلام

تُعدّ قصة عيسى عليه الصلاة والسلام من القصص التي فصّل فيها القرآن الكريم وتكررت كثيراً، بل هناك سورة كاملة باسم والدة عيسى عليه الصلاة والسلام، وهي سورة مريم، وهي السورة الوحيدة التي سُمّيت باسم امرأة، بل مريم هي المرأة الوحيدة التي ذُكر اسمها في القرآن الكريم، تكريمًا لها وتشريفًا، ونفي طعن وشتم اليهود لها، وبيان أنها طاهرة مبجّلة لم تتدنس بِشر، بل كانت امرأة صالحة لها كرامات ربانية كرزقها المتنوع وجريان الماء وإثمار الرطب لها عند ولادة عيسى عليه الصلاة والسلام، ومريم هي سليلة عائلة مؤمنة شريفة، فوالدها عمران وأمها وأخوها هارون وأختها زوجة زكريا عليه الصلاة والسلام من الصالحين.

وفي قصة ولادة عيسى عليه الصلاة والسلام الكثير من العِبر والعظات للمؤمنين سنقف مع بعضها في النقاط التالية: لقد بشّرت الملائكةُ مريم بولادة عيسى عليه الصلاة والسلام مرّتين وجاءتها على هيئة رجالٍ في المرتين ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَآئِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللَّه يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران:٤٥]، ثم لما حان وقت تحقيق البشرى ﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم:١٧]،

وبرغم أن المبشر هنا مريم، وهي امرأة، إلا أن الملائكة وجبريل في المرة الثانية جاء على هيئة رجل لإبطال مزاعم المشركين من كون الملائكة إناثاً، وفي هذا

دلالة وإرشاد للدعاة والعلماء لتوظيف القصة والحكاية في الدعوة والتعليم لبث العقائد وترسيخ المفاهيم وأن ذلك محبب للنفوس، ولذلك كان حجم القصص في القرآن الكريم كبيراً سواء قصص الأنبياء أو الأمم السابقة أو الأحداث المهمة.

ورغم ما جرى في ولادة عيسى عليه الصلاة والسلام من معجزات بكونه جاء من أم بغير أب، حيث خُلق بعد أن نَفخ جبريل عليه الصلاة والسلام في مريم من روح الله عز وجل فحملت مريم به -على خلاف بين علماء التفسير هل كان حمل مريم طبيعياً أتم تسعة شهور أم كان حملاً سريعاً لم يتعد ساعات- ثم ولد عيسى عليه الصلاة والسلام ولادة طبيعية كعادة النساء ﴿فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ [مريم:٢٣] مما ينفي ألوهية عيسى عليه الصلاة والسلام ويثبت بشريته، ومن معجزات مولده كلامه في المهد مع أمه ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم:٢٤]، ثم مع قومه ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم:٣٠].

وبرغم معجزة ولادة عيسى، عليه الصلاة والسلام، إلا أنه طلب من أمه النفساء المتعبة هزّ جذع النخلة لتساقط عليها الرطب! مما يرشد المؤمنين لأهمية التوكل على الله عز وجل والخضوع لأمره مع بذل الجهد والسبب بقدر الوسع والطاقة.

واليوم، وأمة الإسلام تجابه الكثير من التحديات فليس لها إلا صدق اللجوء لله عز وجل مع بذل ما يمكنها من أسباب، ومَن راقب ما يتحقق للمسلمين من خير في حاضرنا بفضل الله عز وجل مع قلة الأسباب التي يبذلونها سيدرك عظم البركة الربانية للجهود المخلصة ولو كانت ضعيفة، ومن آخر تلك الأمثلة إسلام المئات عقب الهجوم الإرهابي الإجرامي على مسجدي نيوزلندا.

ونختم الحديث عن قصة مولد المسيح عليه الصلاة والسلام بعبرة بليغة، فقد كربت مريم كرباً شديداً وقت المخاض حتى إنها قالت: ﴿قَالَتْ يَالَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم:٢٣]، ولكن حين اطمأنت نفس مريم لاصطفاء الله عز وجل لها ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:٤٢] بمعجزة ولادة ابنها من غير أب وكلامه معها، واستعادت قوتها بعد معجزة إجراء الماء وإنضاج الرطب لها، فعند ذلك توكلت على الله عز وجل ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾[مريم:٢٧]، فقد أدركت أنها تقوم بمهمة عظيمة بأمر من الله عز وجل.

وعلى شباب الإسلام اليوم التأسي بمريم الطاهرة بالثبات على أمر الله عز وجل وحمله للعالمين بكل شجاعة وقوة، وتحمل طعن الطاعنين وخذلان الخاذلين والصبر على أذاهم طالما قام اليقين على أن هذا الأمر هو الحق المبين.

وعيسى عليه الصلاة والسلام خاتمة أنبياء بني إسرائيل ولم يكن نبيٌّ بعده إلا نبينا محمد عليهما الصلاة والسلام، وختم النبوة في بني إسرائيل بعيسى عليه الصلاة والسلام هو مراد قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ [المائدة:٤٦]، وذلك أن عيسى عليه الصلاة والسلام بُعث نبياً خصيصًا لبني إسرائيل لقوله تعالى: ﴿وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران:٤٩]، وبهذا يتبين لنا خطأ وانحراف حملات التنصير المعاصرة التي تستهدف غير بني إسرائيل من الأقوام والشعوب والأديان والملل! بينما دعوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قد بين الله عز جل عالمية نطاقها ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨].

ولأهمية التوحيد ومركزيته فقد كرر المسيح عليه الصلاة والسلام بيان عبوديته لله عز وجل، فعند مولده بيّن عبوديته لله تعالى ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم:٣٠]، ودعا بني إسرائيل لعبادة الله وحده ﴿أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة:١١٧]، وعبودية المسيح لله عز وجل لا تزال الأناجيل المعاصرة -برغم تضاربها وتعارضها وتحريفها- تشير في أجزاء منها إلى عبودية المسيح لربه الله عز وجل، وتخلو من نص صريح على ادعائه الألوهية، ومن أمثلة نصوص الإنجيل التي تشير إلى عبودية وبشرية المسيح «ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلوني وأنا إنسان قد كلّمكم بالحق الذي سمعه من الله» يوحنا ٨/٤٠.

ولذلك كانت شهادة حواريي عيسى عليه الصلاةوالسلام -وهم أنصاره- بأنهم مسلمون لله عز وجل ضد من كفر بدعوة عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُون﴾ [آل عمران:٥٢]. وقد أيد الله عز وجل المسيح عليه الصلاة والسلام بعدد من المعجزات ﴿وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِءُ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِين﴾ [آل عمران:٤٩]، وهذه المعجزات الربانية لعيسى عليه السلام تدور على تمكين الله عز وجل له على إحياء الموتى وبث الحياة في الجمادات وشفاء المرضى الذين لا يُعرف لهم دواء، والإخبار عن أسرار بيوتهم وما فيها من مؤنة وقوت، وذلك لتكون معجزته عليه الصلاة والسلام من جنس ما برع فيه أهل زمانه الذين

اشتهروا بالطب والسحر، ولكنهم مع تفوقهم في ذلك يعجزون عن إحياء الموتى وبث الروح في الجمادات وردّ البصر لمن ولد أعمى، وهو الأكمه، أو شفاء مَن بجلده برص وبياض.

ومن العِبر المهمة للدعاة في تجانس المعجزات الربانية للأنبياء مع طبيعة المجتمعات التي يبعثون لها، ضرورة تسلح الدعاة بالعلم والحكمة والمعرفة المكافئة لطبيعة العصر والزمان لإبطال شبهات الزائغين وإرشاد الحائرين بالدليل والحجة الواضحة وهداية المؤمنين للصراط المستقيم، وبذلك تتحقق وظيفة العلماء والدعاة بوراثة الأنبياء في دعوة البشرية لسبيل الهداية والرشاد ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال:٤٢].

الخاتمة

وبهذا اكتملت سلسلة العِبر من قصص الأنبياء بفضل الله عز وجل وتوفيقه، وأسأله سبحانه القبول والمغفرة عن أي خلل أو تقصير.

الفهرس

آدم عليه الصلاة والسلام	٣
نوح عليه الصلاة والسلام	٧
هود عليه الصلاة السلام	١١
صالح عليه الصلاة والسلام	١٥
إبراهيم عليه الصلاة والسلام	١٩
إسماعيل عليه الصلاة السلام	٢٣
إسحاق عليه الصلاة السلام	٢٥
لوط عليه الصلاة السلام	٢٩
شعيب عليه الصلاة والسلام	٣٤
يعقوب عليه الصلاة والسلام	٣٨
يوسف عليه الصلاة والسلام	٤٠
موسى عليه الصلاة والسلام	٤٤
هارون عليه الصلاة والسلام	٤٨

داود عليه الصلاة والسلام	٥٢
سليمان عليه الصلاة والسلام	٥٦
أيوب عليه الصلاة والسلام	٦٠
يونس عليه الصلاة والسلام	٦٤
إدريس عليه الصلاة والسلام	٦٨
ذو الكفل عليه الصلاة والسلام	٧٠
اليسع عليه الصلاة والسلام	٧٠
يوشع عليه الصلاة والسلام	٧٠
إلياس عليه الصلاة والسلام	٧٠
شيث عليه الصلاة والسلام	٧٠
زكريا عليه الصلاة والسلام	٧٣
يحيى عليه الصلاة والسلام	٧٦
عيسى عليه الصلاة والسلام	٧٨

www.osamashahade.com